شرح كتاب فضل الإسلام

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه اللّه

من الدرس ٩ إلى الدرس ١٢

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما اللّه تعالى

١٤٤٠/٠٨/١٦ هـ

الدرس التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال المؤلف رحمه الله وغفر له وللشارح وللسامعين :

باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر

وقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[النساء:١١٦،٤٨] ، وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام:١٤٤] ، وقوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل:٢٥] .

****

قال المصنف رحمه الله وغفر له ((**باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر**)) ؛ الأبواب الماضية اشتملت على تحذيرٍ بالغ من البدعة وبيانٍ لخطورتها ، وقد مر معنا قول الله ﷻ ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] ، كذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ، ولكن أراد المصنف رحمه الله بعقده لهذه الترجمة أن يزيد في بيان هذا الأمر والتحذير من البدع المحدثات التي هي ليست من دين الله ﷻ ؛ وإن كان فاعلها يفعلها تديناً وتقرباً إلى الله ﷻ إلا أنها ليست من دينه ولا يقبلها الله ﷻ من فاعلها ، لأن شرط قبول الدين : أن يكون لله خالصًا وللسنة موافقًا ، فإن لم يكن كذلك فهو مردود على فاعله غير مقبولٍ منه .

والبدعة : هي الحدَث في دين الله ﷻ ، كما قال ﷺ ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)) ، والحدَث في الدين سواءً كان في باب العقيدة أو في باب العبادة والعمل يعدّ بدعةً ويعدّ حدَثًا في دين الله ﷻ ، وهو مردود على صاحبه غير مقبول منه ؛ فكل عقيدةٍ ليست في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فهي بدعة ضلالة، وكل عملٍ يُتقرب به إلى الله ﷻ وليس في نصوص الشرع دلالة على مشروعيته سواءً استحبابا أو وجوباً فهو بدعة ضلالة ، والبدع تكون في الاعتقاد وتكون في الأعمال ، ومن أحدث في دين الله ﷻ ما ليس منه سواءً في باب العقيدة أو في باب العمل والعبادة فهو بدعة ضلالة .

وقد تنوعت البدع الضالة التي أحدثها الناس في باب الاعتقاد وفي باب العمل ، وكلها تنشأ عن الأهواء الباطلة التي ما أنزل الله بها من سلطان ، قد قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[القصص:٥٠] ، فكل من لم يلزم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فهو متّبعٌ للهوى ؛ وهذه قاعدة دلت عليها الآية المتقدمة ؛ كل من لم يتبع الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ فهو متبعٌ هواه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ . البدعة تكون في جانب الاعتقاد وتكون في جانب العمل .

أيضا البدعة قد تكون بدعةً حقيقية بمعنى أنها لا أصل لها مطلقاً في شرع الله ﷻ، وتارةً تكون بدعة إضافية بمعنى أن لها شائبتين : شائبة من جهة الشرع ، وشائبة مما لا أصل له في الشرع ؛ وهذه بدعة إضافية ، كأن يأتي المتعبّد لعبادةٍ مشروعة فيوظفها في كمّها أو كيفها في أوقاتٍ مخصوصة على غير ما شرع الله ﷻ ، ومن خصَّص فقد شرع؛ من خصَّص ما لم يشرعه الله بوقتٍ أو بحالٍ أو عمل فقد شرع في دين الله ﷻ ما لم يأذن به الله ﷻ .

والبدعة شأنها على الإنسان خطيرٌ جداً ؛ لأن الإنسان يقوم بها ويظن أنها تُدْنيه من الله وتقرّبه منه وأنها عملٌ صالح يحبه الله ﷻ ، بخلاف المعصية ؛ المعصية فاعلها يعلم من نفسه أنه على معصية وأنه على ذنب ولكن شهوته تغلبه ، ويمارس شهوته أو المعصية وهو يعرف أنه مذنب ، بينما المبتدع صاحب البدعة يمارسها وهو يظن أنه على سنة وأنه على هدى وعلى خير وعلى عمل صالح يحبه الله ﷻ ، ولهذا البدعة أخطر من المعصية ، وهذا ما ترجم المصنف واستدل له بآيات وأحاديث قال : ((**باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر**)) ، جاء عن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال : «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها والبدعة لا يُتاب منها» ، ومعنى قوله «البدعة لا يُتاب منها» : أي أن صاحبها يرى أنها دين وشرع فلا يتوب منها بل يدافع عنها ويسعى في نشرها ، بينما المعصية يتاب منها لأن صاحبها يرى أنه عاصٍ وأنه مذنب ويندم كثيراً على فعله لها ؛ فهو قريب من التوبة ، بينما المبتدع بعيد من التوبة لأنه لا يرى نفسه أصلاً مذنباً وإنما يرى نفسه على سنة وعلى حق وعلى صواب ، ولو قيل له هذا خطأ أو هذا ليس من دين الله لغضب ولما قبِل ، لأنه يرى أن العمل الذي يمارسه من الدين ومن شرع الله ﷻ ، ولهذا قال: «البدعة لا يُتاب منها والمعصية يتاب منها» لأن صاحبها يرى أنه على سنة وعلى حق وعلى صواب.

والمصنف رحمه الله هنا يقول: ((**أن البدعة أشد من الكبائر**)) ؛ البدعة التي هي حدَث في دين الله ﷻ أشد من الكبيرة ؛ الكبيرة يتاب منها وصاحبها في الغالب الأعم يعلم أنه مذنب وأنه مقصر في جنب الله وأنه مرتكب لإثم وخطيئة ، يعلم ذلك لكن تغلبه شهوته ، بينما المبتدع لا يرى أنه على خطأ بل يرى أن العمل الذي هو عليه هو الصواب . فهي أشد من هذه الجهة ؛ من جهة أن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها . وهي أشد من

جهة أخرى أنها إحداثٌ في دين الله ما ليس منه ، أما المعصية لم يحدِث في الدين وإنما عصى الله ﷻ بفعله للذنب ، والحدَث في دين الله شأنه خطير لأنه قولٌ على الله وفي الله بغير علم ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣] ؛ فهذه خطورة للبدعة وأنها أكبر من الكبائر .

وأيضا البدعة أكبر من الكبائر لأن البدعة – كما يقول أهل العلم – بريد الكفر وبريد الشرك بالله ﷻ ، لأن المبتدع فتح لنفسه باب الحكم في دين الله بغير شرع الله ، وإنما يحكم في دين الله بهواه وبما لم يأذن به الله ﷻ ، وهذا بابٌ يفضي به إلى الكفر والشرك بالله ﷻ، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ؛ الحكم الكوني والقدري والشرعي والجزائي لله ﷻ ليس له شريك في ذلك ، فمن ترك شرع الله إلى المحدثات فهذه خطورة بالغة أشد من مجرد فعل الكبيرة أو المعصية .

فالبدعة أشد من الكبيرة من وجوه عديدة ، والمصنف رحمه الله عقد هذه الترجمة في كتابه «فضل الإسلام» تحذيراً من البدع لأنها ليست من الإسلام ، والله ﷻ لا يقبل إلا الإسلام ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ، البدع ليست من الإسلام ، ليست من دين الله ، والله ﷻ لا يقبل إلا الإسلام ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ، ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾[آل عمران:١٩] .

ثم أورد أول ما أورد رحمه الله من أدلة لهذه الترجمة قول الله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ ؛ وتصدير المصنف لدلائل أو لبيان أن البدعة أشد من الكبيرة بهذه الآية التي تبين خطورة الشرك في دين الله ﷻ لأن :

- البدع منها ما هي بدع شركية ؛ يمارسها المبتدع وهي شرك بالله ﷻ ، كقصد القبور بالعبادة والتبرك وطلب المدد والنذور والطواف وغير ذلك من القرَب التي هي لله وحده ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ .
- ومن البدع ما هي وسائل للشرك بالله ﷻ ؛كالبناء على القبور ، قال عليه الصلاة والسلام: ((لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)) ، أو الصلاة إلى القبور أو إسراجها أو غير ذلك من البدع التي هي وسائل مفضية إلى الشرك بالله ﷻ .

بل البدع بعامة بريد للشرك ؛ لأن المبتدع فتح لنفسه باب التفلت من الاستسلام لله بما شرع إلى ممارسة الأهواء والبدع ، ولأجل ذلك صدَّر المصنف رحمه الله هذه الترجمة بهذه الآية الكريمة التي تحذِّر من الشرك، لأن البدعة إما

شرك بالله ﷻ أو مفضية إلى الشرك بالله والكفر به ﷻ ، قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء:٤٨] . وكذلك أيضا التصدير بهذه الآية فيه إشارة إلى ما دل عليه قول الله ﷻ ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:٢٣] وهذا نوع من الشرك بالله ﷻ .

فهذه الآية فيها تحذير من البدع وبيانٌ لخطورتها ، ومن المعلوم أن أعظم الذنب الشرك بالله ﷻ ، وقد سئل عليه الصلاة والسلام: ((أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ الشِّرْكُ بِاللهِ)) ؛ والمصنف رحمه الله استدل بالآية هنا على خطورة البدعة وأنها أشد من المعصية لأن البدعة إما هي في ذاتها شركٌ بالله ﷻ ، أو أنها مفضية إلى الشرك ؛ والشرك أعظم الذنوب وأخطرها ، ولهذا لا تقارن البدع بالمعصية ، البدعة أشد وأخطر على صاحبها من المعصية .

وهنا ينبغي أن يلاحظ أن هذا الكلام لا يعني التقليل من المعاصي والتهوين من شأنها ، المعاصي خطيرة وخطرها بالغ ؛ لكن معرفة الإنسان لتفاوت المعاصي فيه فائدة له في الحذر من المعاصي كلها ، ولهذا كان الصحابة يسألون النبي ﷺ عن التفاوت بين المعاصي والذنوب ؛ «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟» ؛ هذا باب من الفقه مهم ، ولولا أهميته لما سأل عنه الصحابة ولما أجابهم عنه الرسول ﷺ ، فهذا بابٌ عظيم من الدين لا بد من فهمه، وعندما يختل فهم الناس لهذا الباب ترى فيهم من يمارس معصية أعظم ويتورع عن معصية دون ذلك ، يتورع عن دم البعوض ولا يتورع عن قتل مسلم بغير حق ، عندما يختل فهم الإنسان لفهم تفاوت الذنوب وعظم جرمها وتفاوتها في ذلك تجد من الناس من يتورع عن معصية هي من صغائر الذنوب ولا يتورع عن الشرك مثلا أو عن بدعة من عظائم البدع ، ولهذا هذا الباب من العلم في غاية الأهمية ؛ «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟» هكذا سأل الصحابة رسول الله ﷺ ، وهم لم يسألوا هذا السؤال من أجل الاستهانة بالأصغر أو الأقل إثماً ؛ ليس هذا القصد ، وإنما من أجل معرفة الأخطر ليزداد البعد عنه .

ولهذا أعيد ما سبق وهو : أن ذِكر أن البدعة أشد من المعصية لا يعني بأي حال التقليل من المعاصي ، المعاصي خطيرة ، ولكن يُقصد منه مزيد الحيطة والحذر من البدع التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

ثم أورد المصنف رحمه الله تعالى قول الله ﷻ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ وهذا أيضا مما يبين خطورة البدعة والحدث في دين الله تبارك وتعالى ، لأن الله ﷻ حكم على هؤلاء بأنه لا أحد أظلم منهم ، والاستفهام في هذه الآية بمعنى النفي ؛ قوله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أحد أظلم ممن كانت هذه صفته وهذه حاله؛ يفتري على الله الكذب ليضل الناس بغير علم ؛ يفتري على الله ويفتري على رسول الله ﷺ ويقول هذا حلال وهذا حرام وهذا مشروع وهذا من الدين وهذه من القرب كذباً وافتراءً على الله تبارك وتعالى وقولاً عليه ﷻ بغير علم . والقول على الله تبارك وتعالى بغير علم أعظم المحرمات وأخطرها وأشدها إثماً في جميع

الشرائع المنزلة ، أخطر الذنوب القول على الله بلا علم ، ويدخل في القول على الله بغير علم الشرك والبدع ؛ كل ذلك من القول على الله وفي الله وفي دينه بغير علم .

قال: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ ليضلهم : أي عن دينهم الذي شرعه الله ، وليخرجهم من الإسلام إلى نقيضه من الشرك وأنواع الضلالات . وكم من مفتريات افتُريت على رسول الله ﷺ ترويجاً للباطل ، وأعظم ما افتُري على الرسول ﷺ مفتريات يروّجها بعض أئمة الباطل ودعاة الضلال فيها ترويجٌ للشرك الذي أمضى عليه الصلاة والسلام حياته كلها في محاربته ، ومن أشنع ذلك وأفظعه قول أحدهم كاذبا مفتريا على رسول الله ﷺ زاعماً أنه ﷺ قال ((إذا أعْيَتْكم الأمور فعليكم بأهل القبور)) ؛ ينسب ذلك كذباً وافتراء إلى رسول الله ﷺ ليروّج الشرك الذي هو أعظم الذنوب بالكذب على الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وآخر يكذب عليه أنه قال ((من اعتقد في حَجَر نفَعَه)) ؛ وهذا كله من كذب عبَّاد الأصنام أهل الشرك بالله تبارك وتعالى ؛ ترويجا لباطلهم وضلالهم ، وهذا كله مما يبين لنا خطورة البدع وأنها فتْح باب شر على الناس وفي دين الله ﷻ لأنها تُلصَق بالدين ويعدُّها أربابها ومن تُرَوَّج عندهم جزءً من دين الله ﷻ ، ويمارسونها على أنها دين وقربة يتقربون بها إلى الله ﷻ . قال: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ؛ والعلم: قال الله ، قال رسوله ﷺ .

ثم أورد قول الله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ وهذه أيضا من أخطر ما يكون في بيان حال أهل البدع ودعاة البدع وأئمة الضلال ؛ فالداعي إلى الضلال يحمِل إثم نفسه فيما يمارسه من بدع وضلالات ، ويحمل إثم أتباعه ومن أضلّهم بغير علم ، فهو يحمل وزر نفسه ووزر أتباعه ؛ وليس فقط وزر أتباعه الذين تلقوا عنه مباشرة ، بل يحمل وزر الأتباع ، وأتباع الأتباع ، وأتباعهم إلى يوم القيامة ، وهذا من أخطر ما يكون ، يلج الداعية إلى الضلال قبره ويُدرج في قبره ولا يزال على مر التاريخ تتوالى عليه الأوزار وتُكتب عليه الذنوب يوماً تلوَ يوم ، وهو ميت في قبره وكل يومٍ يأتيه في قبره أوزار ، ربما أنه مات قبل ألف سنة أو أكثر أو أقل ولا يزال الذنب يأتيه ، وقد قال ﷺ : ((لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا)) لأنه أول من سنّ القتل ، وقد قال ﷺ كما سيأتي: ((مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا)) ؛ فهذا مما يبين خطورة الدعوة إلى البدعة ، وأن الداعي إلى البدعة وإلى الضلالة يحمل إثم نفسه وإثم أتباعه إلى يوم القيامة وهذا غاية في الخطورة ، والله جل وعلا يقول : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ ؛ أي أن ما ارتكبوه من وزر وذنب هو من أعظم السوء وأشنعه .

إذاً هذه الآيات الثلاث تدل على خطورة البدعة من جهاتٍ عديدة يمكن أن نلخصها في نقاط :

- الأولى : أن البدعة شركٌ أو بريدٌ إليه .
- الثانية : أن هذا من أعظم الظلم .
- الثالثة : أنها افتراء كذبٍ على الله جل وعلا ، وعلى رسوله ، وفي دينه .
- الرابعة : أنها ضلال ، قال: ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ﴾ .
- الخامسة : أنها قول على الله تبارك وتعالى بغير علم .
- السادسة : أن صاحبها الداعي إليها يحمل إثم نفسه وإثم أتباعه إلى يوم القيامة .
- والسابعة : أن ذلك الوزر أسوأ الوزر وأفظعه ، ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ .

قال رحمه الله :

وفي الصحيح أنه ﷺ قال في الخوارج : ((أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ)) ، ((لَئِنْ لقيتهم لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ)) ، وفيه ((أنه ﷺ نهى عن قتل أمراء الجور ما صلَّوا)) .

****

ثم أورد هذين الحديثين : الأول يتعلق بأهل البدع ، والثاني يتعلق بأهل المعاصي . وأراد المصنف رحمه الله في إيراده لهذين الحديثين أن يبين أن حال البدعة أخطر من حال المعصية .

قال : **وفي الصحيح أنه ﷺ قال في الخوارج : ((أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ))، ((لَئِنْ لقيتهم لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ))** ؛ حكَم فيهم ﷺ هذا الحكم ؛ قال: **((أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ))**، وقال :**((لَئِنْ لقيتهم لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ))** ، بينما أمراء الجوْر – والجور ظلم وهو ذنب من الذنوب التي يُعصى الله ﷻ بها – قال في أئمة الجور : **((نهى عن قتل أمراء الجور ما صلوا))** ؛ هناك أولئك قال: **((اقْتُلُوهُمْ))** وهنا قال: **((نهى عن قتلهم ما صلوا))** فهذا مما يبين أن البدعة أخطر من المعصية ، وضررها في المجتمع أشد من المعصية .

وأنت في هذه المسألة قارن بين شخصين : شخصٌ يحمل عقيدة الخوارج بما فيها من فكر فاسد وضلال عظيم وما يترتب عليها من أضرار في المجتمع لا حد له ، وأمير الجور وما عنده من ظلم وظلمه فيه ضرر على مجتمعه، لكن قارن بين المضرتين ؛ أمير الجور مع وجوده جائراً أمور الناس في عباداتهم ، في أمنهم ، في حفظ أعراضهم ، في تحقق مصالحهم ماضية ، ساعة بإمام جوْر خيرٌ للناس من أزمنة بلا إمام ؛ إمام جور تنتظم فيه أمورهم يصلّون ويمارسون أعمالهم ويأمنون على أعراضهم إلى غير ذلك من المصالح التي لا تتحقق لو لم يوجد إمام ، فإمام جور خير من بقاء الناس بلا إمام ، لكن وجود بدعة الخوارج ونظائرها وانتشارها في المجتمع يترتب عليها اختلال الأمن

وإراقة الدماء وانتهاك الأعراض واستلاب الأموال وغير ذلك من المفاسد التي لا حد لها ، ولهذا دعا عليه الصلاة والسلام إلى القضاء عليها فوراً ؛ قال ((**فَاقْتُلُوهُمْ**)) ، ((**لَئِنْ لقيتهم لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**)) ؛ أمر بالقضاء الفوري عليهم ، لأن بقاؤهم في المجتمع يترتب عليه أنه ينشر فكره في المجتمع ولاسيما في حُدثاء الأسنان ويمرِّر عليهم ضلاله على أنه جزء من الدين الذي يتقرب به إلى الله ﷻ ، أما إمام الجور أو أمير الجور فوجوده يترتب عليه حفظ الأمن وبقاء العبادة وصلاح أحوال الناس مع الظلم الذي قد يُمارس في حقهم ، وعليهم في هذا الباب كما قال السلف أن يصبروا حتى يستريح بر أو يُستراح من فاجر . وعلى الناس في مثل هذه الحال أن يُصلِحوا حالهم يُصلح الله ﷻ مَن عليهم ، يرفعوا الظلم عن نفسهم ويرفع الله عنهم ظلم ولاتهم ، ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾ [الأنعام:١٢٩] ؛ فيرفع الإنسان عن نفسه بتقوى الله وصلاح حاله وإقامة دين الله ﷻ في نفسه وفي بيته وفي جيرانه بالدعوة إلى الله ﷻ .

ولهذا ليس هناك مقارنة بين من يحمل فكر الخوارج وبين من هو إمام جور ، والنبي عليه الصلاة والسلام فرّق ؛ في الخوارج قال: ((**اقْتُلُوهُمْ**)) ، وفي أمير الجور قال: ((**لا، ما صلَّوا**)) . طيب اسأل هنا سؤالاً : هنا قال ((**لا ما صلوا**)) الخوارج هل يصلُّون أو لا يصلون ؟! ؛ النبي ﷺ قال للصحابة: ((تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ)) ليس فقط يصلون ؛ قال: ((تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ)) ليسوا تاركين للصلاة يصلون ، وهنا في أئمة الجور قال ((**لا ما صلوا**)) ، وأولئك لم يذكر أمر الصلاة لأنها معروفة عندهم مشهورة بينهم ، مع وجود الصلاة قال: ((**لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**)) مع أنهم يصلون ويقرؤون القران ويذكرون الله تبارك وتعالى ، ولم يقل هنا في الخوارج ((لا، ما صلوا)) لا تقتلوهم إذا ما رأيتموهم يصلون أو رأيتموهم محافظون على الصلاة لم يقل ذلك ، وفي أئمة الجور قال: ((لا ما صلوا)) فرّق بينهم .

وهنا تلاحظ ملاحظة تُستفاد هنا : أن الظالم تنفعه صلاته ، وقد تكون صلاته سبب لحجزه عن ظلمه ، أما المبتدع فإنه لا يستفيد من صلاته ؛ لأن قلبه قائم على الهوى ويعتقد أن ما يعمله من عمل باطل شأنه مثل الصلاة وربما أعظم من الصلاة ، فهو لا يرى نفسه مذنباً تحجزه صلاته عن ذنبه ، بخلاف الظالم عندما يصلي ويقف بين يدي الله ويستحضر عظمة الله عليه واطلاعه عليه ربما أن صلاته تمنعه ، أما هذا يصلي وفي صلاته يدعو أن يمكن الله له في باطله الذي يرى هو أنه حق وأنه من دين الله تبارك وتعالى، فلا يقارن بين هذا وذاك ، البدعة أخطر من المعصية .

وهذا مثال عظيم جدًا ساقه المصنف ليبين به الفرق بين البدعة والمعصية ؛ في الخوارج الذين هم أهل بدع قال النبي ﷺ: ((**أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ**))، ((**لَئِنْ لقيتهم لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**)) مع إخباره عنهم أنهم يصلّون ، بل قال: ((تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وقراءتكم مع قراءتهم)) ، وفي أئمة الجور يعني أمراء الظلم والجور قال: ((**نهى**

عن قتلهم)) وقال ((**لَا مَا صَلَّوْا**)) ، مادام يصلون لا تفعلوا ذلك ، وفي رواية قال: ((لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ))، وفي رواية قال: ((إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ)) ؛ لاحظ!! عدة قيود ؛ قال ((إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا)) ولم يكتف بهذا قال: ((كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ)) يعني انتبهوا ؛ لا أنّ الإنسان يبدوا له من أول وهلة أن هذا الأمر كفر ثم يشرع في قتال ، بل انتبهوا ((إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ)) ؛ بل قواعد الشريعة تدل أنه لو كان الإمام عنده كفر بواح عند الناس فيه من الله برهان، وكان في خروجهم عليه من الفساد والضرر أعظم من عدم الخروج يُنهون عن الخروج عليه ويسعون في صلاح الأمور من أبواب أخرى .

ومن الأخطاء الشائعة أن ينشغل الناس بظلم الولاة عن الظلم الذي يمارسونه هم ، تجده هو نفسه ظالم لنفسه بترك الصلاة ، ظالم لنفسه بفعل المحرمات ، ظالم لنفسه بفعل الذنوب ، ظالم لنفسه بترك الواجبات ، وينسى ظلم نفسه ولا يتحدث إلا عن ظلم الولاة !! وهذه من الأخطاء ؛ المفترض في الإنسان أن ينظر أولاً في نفسه ويصلح نفسه ويجاهد نفسه على الاستقامة على طاعة الله ولزوم شرع الله تبارك وتعالى يُصلح ولده ، يصلح بيته ، يصلح جيرانه بالدعوة إلى الله حتى ينتشر فيهم الخير ويُصلح لهم الله تبارك وتعالى الأمر .

الشاهد أن هذا الإيراد من المصنف رحمه الله إيرادٌ عظيم لهذين الحديثين في التنبيه على أن جرم البدعة أعظم من جرم المعصية ، والتفرقة بينهما ظاهرة في حديث النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

قول المصنف ((**وفيه**)) أي في الصحيح ((**أنه ﷺ نهى عن قتل أمراء الجور ما صلّوا**)) أشار إلى معنى الحديث ، والحديث جاء في الصحيح عن عوف بن مالك الأشجعي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ((خِيَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ)) يعني تدعو لهم ويدعون لكم ((وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ ،وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ)) ، قَالُوا: «قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟» يعني نحمل عليهم السيف؟ أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ يعني إذا بلغ الحال هذا المبلغ ؟ قَالَ : ((لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَآهُ يَأْتِي -أي الوالي- شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ)) ؛ فانظر هذا التحذير البالغ .

وفي هذا المعنى جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه أحاديث ، ويمكن أن يقف المسلم وطالب العلم على طرف كبير منها في كتاب الإمارة من صحيح مسلم . وبعض من أصابهم هوى يستوحش من كتاب الإمارة في صحيح مسلم ولا يستوحش من كتاب الصلاة في صحيح مسلم ، ولا من كتاب الزكاة ، ولا من الكتب الأخرى! وكتاب الإمارة يستوحش منه وربما لا يطيق قراءته!! مع أن الذي في كتاب الإمارة أحاديث صحيحة ثابتة عن رسول الله ﷺ ثبوت أحاديث الصلاة وثبوت أحاديث الزكاة ، فلمَ الاستيحاش من هذا والاستئناس بذاك وكله دين الله ؟!

بل جمع عليه الصلاة والسلام بين هذه الأمور في بعض الأحاديث مثل قوله ﷺ في حجة الوداع : ((اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ)) كلها ساق بمساق واحد ، فبعض الناس بسبب الهوى يستوحش من الأحاديث التي تتعلق بالإمارة ولا يستوحش من الأحاديث التي تتعلق بالصلاة والصيام ويصاب بعنترية الجاهلية وأنَفتهم ، ومن أمور الجاهلية التي خالفها الإسلام وجاء الإسلام بمخالفتها «عدم السمع والطاعة» ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال : ((ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة المسلمين ، ولزوم جماعتهم)) ؛ لا يغل : يعني لا يجد في قلبه غلاً ، لا يجد حسيكة في قلبه بل صدره منشرح لها ؛ الإخلاص لله بالتوحيد ، ولزوم الجماعة ، ومناصحة ولاة الأمر وعدم غشهم . وقد ثبت في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((لا تسبوا أمراءكم)) ؛ الأمراء إذا كان عندهم ظلم أو عندهم ذنوب يُدعى لهم بالصلاح ، يُدعى لهم بالهداية ، الفضيل بن عياض رحمه الله يقول: «لو كانت لي دعوة مستجابة لجعلتها للسلطان» أي أن يهديه الله ، لأن صلاح السلطان فيه صلاح لرعيته ومجتمعه ، وهذا لا يقوى عليه كل أحد وإنما يقوى عليه الأئمة الأكابر .

قال رحمه الله :

وعن جرير بن عبد الله ﷺ أن رجلاً تصدق بصدقة ثم تتابع الناس فقال رسول الله ﷺ ((مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)) رواه مسلم . **وله مثله من حديث أبي هريرة ولفظه: ((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى .. ثم قال : وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ)).**

****

ثم أورد المصنف رحمه الله حديث جرير بن عبدالله البجلي ﷺ **((أن رجلا تصدق بصدقة ثم تتابع الناس))** تتابع الناس في الصدقة **((فقال رسول الله ﷺ : مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ.** رواه مسلم)) ؛ المصنف رحمه الله لما أورد الحديث أشار إلى قصة الحديث .

والحديث له قصة وهي : أن النبي عليه الصلاة والسلام كان في المسجد وجاء إليه وفد وكانوا فقراء أعياهم الجوع والفقر والحاجة ؛ فدعا النبي ﷺ إلى الصدقة على هؤلاء ، فبادر أحد الأنصار وجاء بمال يصعب عليه حمله من ثِقله ووضعه بين يدي النبي ﷺ ، فرآه الناس فتتابعوا في الصدقة على إثر هذه الصدقة الكبيرة التي قدّمها . أرأيتم لو كان أناس في مجلس فعُرض عليهم الإنفاق في أمر معيّن وذُكر لهم ثمرته وفائدته قد لا ينشط كثير من الناس ، لكن لو قام أحدهم وقال: "هذه عشرة آلاف ريال منّي لهذا المشروع" ؛ تجد كلٌّ ينفق ، حتى الفقير إذا كان عنده

درهمين أخرج واحداً ، هذه سنة حسنة بالقدوة ، والقدوة بفِعل المأمور ، فيسُن الإنسان للناس سنة حسنة بفعل المأمور فيقتدي الناس به فيكون بذلك سنَّ سنة حسنة . حينئذ قال النبي ﷺ: ((**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**)) ؛ القصة توضح لك معنى الحديث .

لو قيل لك ما معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام ((**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً**)) ؟ الجواب : من عمل عملاً مشروعا ثابتاً في السنة عن النبي ﷺ واقتدى به الناس فإنه بهذا العمل سنَّ في الناس سنة حسنة ؛ لأنه دعاهم إلى المشروع ورغّبهم فيه بالقدوة ، وكذلك بالدعوة والترغيب .

((**فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا**)) ؛ لو كان في مجتمع يجهل الناس سنة من السنن الثابتة عن النبي ﷺ فذكّرهم بها وعلّمهم وبيّن لهم الدلائل عليها وعمِلوا بها يُكتب له أجره وأجرهم ((**فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**)) فيُكتب له أجره هو لعمله ، وأجورهم هم من غير أن ينقص من أجورهم شيء .

قال: ((**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً**)) ؛ الذين يمارسون البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان ويُحدثونها يستدلون بهذا الحديث ؛ وهي ما يسمونها بـ«البدع الحسنة» ، يُحدِثون في الدين ما ليس منه ثم يسمونه حسناً ، وهي تسمية باطلة لأن النبي ﷺ وصف كل بدعة بأنها ضلالة ولم يستثنِ ، وتسمية بعض البدع بأنها حسنة مناقَضة ومصادَمة ومصادرة لقوله عليه الصلاة والسلام ، ثم يستدلون لها بهذا الحديث ((**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً**)) .

وفي الرد على هؤلاء نقول : الحديث ليس فيه ذكرٌ للبدعة هنا ؛ وإنما ذِكر للسنة . ما هي السنة الحسنة ؟ التي جاءت عن النبي عليه الصلاة والسلام ؛ وإلا يلزم هؤلاء إلزام لا مفك لهم عنه وهو أن هناك سنن حسنة من دين الله تركها النبي عليه الصلاة والسلام دون بيان ، ولأجل ذا قال مالك رحمه الله : «من قال في الدين بدعة حسنه فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة ، لأن الله يقول: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ، فما لم يكن ديناً زمن محمد ﷺ وأصحابه فلن يكون اليوم دينا» ولن يكون ديناً إلى قيام الساعة .

قال: ((**وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا**)) ؛ هنا تدخل البدعة ؛ ليس في القسم الأول أو الجانب الأول من الحديث . وصاحب البدعة يأتي إلى الحديث ويستدل به فيما لا دلالة في الحديث عليه، ويدَع من الحديث ما فيه ردٌّ عليه!! وهنا يقول النبي عليه الصلاة والسلام: ((**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً**)) ؛ أي بالبدع والمحدثات وغيرها ((**كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**)) رواه مسلم.

قال : ((**وله**)) أي لمسلم ((**مثله من حديث أبي هريرة ولفظه** : مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا)) . والهدى ما هو ؟ النبي ﷺ كان يقول كل جمعة : ((أما بعد ، فإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا)) ؛ فقوله ((الهدى)) مثل قوله ((سنة حسنة)) ؛ والمراد: دين الله الذي شرعه وجاء عن رسول الله ﷺ ، وما سوى ذلك هو سنة سيئة وهو في الوقت نفسه ضلالة ؛ لأنه ليس من دين الله ﷻ.

في هذا الحديث والذي قبله فائدة عظيمة جداً لمن وفقهم الله ﷻ للدعوة إلى الله وإلى دينه بالقدوة الصالحة وبالبيان؛ فهؤلاء لهم أجرٌ عظيم لا يعلم قدره إلا رب العالمين ﷻ ؛ لماذا؟ لأن له من الأجر مثل أجور من تبعه ، وهو من الصدقة الجارية كما قال عليه الصلاة والسلام: ((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ –وذكر منها – وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)) ؛ ولهذا دعاة الهدى الذين ماتوا من قريب أو من بعيد لا تزال الأجور تتوالى عليهم في قبورهم يومًا بعد يوم ، ساعةً بعد ساعة ، لحظةً بعد لحظة ؛ وهو في قبره تتوالى عليه الأجور وتتكاثر عليه الأجور يومًا بعد يوم لم ينقطع عمله . العابد الذي عبادته لا تتعداه ينتهي الأجر عند هذا الحد إلا إن قيّض الله له ولداً صالحاً يدعو له ، أو ترك صدقة من ماله جارية يُستفاد منها ؛ فلا يزال الأجر يأتيه ما استُفيد منها وما بقيت منتفَعٌ بها ، ودعاة الحق والهدى لهم هذه الأجور العظيمة وهي بقاء الأجر والثواب المستمر بعد وفاتهم ، وهذا مما يجعل الإنسان يجاهد نفسه على تحصيل العلم النافع ومعرفة سنن النبي ﷺ ونشرها وبثها في الناس ودعوة الناس إليها ؛ حتى يبقى له بعد مماته عمر ثاني تترى وتتوالى عليه وتُكتب في حسناته وتنزل عليه في قبره وتتوالى عليه الأجور ، فهذا بابٌ عظيم من الخير دل عليه هذا الحديث .

ومن فوائد هذا الحديث : عظم مكانة النبي ﷺ ؛ لأن كل أجور الأمة له مثلها عليه الصلاة والسلام إلى قيام الساعة ، لأنه هو الذي دعاهم ودلهم إلى هذا الخير فله مثل أجور أمته عليه الصلاة والسلام .

وأيضا هذا الحديث يدل على عظم فضل الصحابة الذين نقلوا للأمة ما عهد إليهم النبي ﷺ من السنن والخير ؛ فبلَّغوه وافياً تاماً بأمانة وبدقة وبعدالة وبثقة ، هذا يدل على مكانة الصحابة ويدل أيضا على أن الطعن في الصحابة طعنٌ في دين الله ؛ لماذا؟ لأن دين الله تبارك وتعالى لم يصِل إلينا إلا من طريقهم ، فالطعن في الناقل طعنٌ في المنقول ، الطعن في الصحابة طعن في الدين نفسه لأن الدين لم يصل إلينا إلا من طريقهم .

فهذا الحديث يدل على عظم مكانة الصحابة ، ويدل أيضا على عظم مكانة أهل العلم وفضلهم ومكانتهم وأن العالم شأنه أعظم من العابد ؛ لأن الخير الذي عنده متعدي ، وليس متعدٍ لمن حوله في زمانه ؛ بل متعدٍ لأقوام وأجيال وأمم تأتي بعده ، الآن عندما تقرأ عِلم ابن تيمية ، علم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، علم الأئمة قبلهم وبعدهم ، الإمام أحمد ، الشافعي ، الإمام مالك ، سفيان الثوري ، وغيرهم من أئمة الإسلام هل النفع

الذي حصل منهم قاصر على التلاميذ الذين كانوا حولهم ؟ نحن إلى يومنا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لا نزال نقول : قال الإمام الشافعي ، قال الإمام مالك ، قال الإمام سفيان الثوري ، قال الإمام فلان وفلان وفلان ، عِلمهم متعدي ؛ ليس علمهم متعدي إلى من حولهم فقط بل إلى أجيال وأمم بعدهم لا يعلم عددهم إلا الله تبارك وتعالى ، فهذا يبين مكانة العلماء وعظم الأثر والخير الذي يجريه الله ﷻ على أيديهم.

وأيضا هذا الحديث يدل على فضل طلب العلم ، ومكانة العلم ، وأهمية الحرص عليه بغرض نفع النفس ونفع الغير، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله : «العلم لا يعدله شيء إذا صلحت النية» قيل وما صلاحها ؟ قال : «أن تنوي به رفع الجهل عن نفسك وعن غيرك» .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

الدرس العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال الإمام رحمة الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

باب ما جاء أن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة

هذا مرويٌ من حديث أنس ومن مراسيل الحسن . وذكر ابن وضاح عن أيوب قال : كان عندنا رجل يرى رأياً فتركه ، فأتيت محمد ابن سيرين فقلت: أشعَرتَ أن فلاناً ترك رأيه ؟ قال : انظر إلى ماذا يتحول !! إن آخر الحديث أشدُّ عليهم من أوله ((يمرقون من الإسلام ثم لا يعودون إليه)) . وسُئل أحمد ابن حنبل عن معنى هذا الحديث فقال : لا يوفق للتوبة .

****

قال رحمة الله ((**بابٌ ما جاء أن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة**)) ؛ هذا الباب هو بمثابة التفريع للباب الذي قبله ؛ في الباب الذي قبله قال: «باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر» ، والبدعة أشد من الكبائر لوجوه عديدة ؛ منها ما ثبت في الحديث ((أن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) ، فهذا الباب بمثابة التفريع للباب الذي قبله في بيان خطورة البدعة وأنها أعظم من الكبيرة.

وقوله ((**احتجز التوبة على صاحب البدعة**)) أي: يُحال بينه وبينها ، كما قال أهل العلم أي لا يوفق للتوبة .
والسبب في ذلك :

- أنه لا يرى نفسه مخطئاً أو مذنباً بل يرى نفسه على هدى وعلى حقٍّ وعلى صواب، بخلاف صاحب الكبيرة ، صاحب الكبيرة يرى أنه مخطئ وأنه على ذنب ولهذا تكون التوبة قريبة منه ؛ لأن أول التوبة العلم بالذنب والعلم بالخطأ، وصاحب البدعة عِلْمه أنه على صواب وأنه على هدى ؛ ولهذا لا يوفق للتوبة لأنه يرى أنه على الحق .
- وأيضا من جهة أخرى ؛ أن قلبه أشرِب البدعة ، وقد مر معنا قريباً قول النبي ﷺ : ((إِنَّهُ سيكون في أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ))؛ وهذا معناه تمكن الهوى والبدعة منهم وتغلغلها فيهم وأن قلوبهم أشربت البدعة ، فمثل هؤلاء لا يوفقون للتوبة .

وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام ((إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) .
والتوبة ما هي ؟ التوبة : ندمٌ على الذنب ، وإقلاعٌ عنه ، وعزمٌ على عدم العودة إليه ؛ "ندم على الذنب" لكن المبتدع ما الذي يرى نفسه عليه ؟ هل يرى نفسه على ذنب أو على معصية ؟ ليس عنده شي يُندم عليه ؛ بل إنه يسأل الله أن يميته على هذا العمل وأن يلقى الله به ويعُدّه في صالح عمله ، فليس عنده ندم على عمله فضلاً عن أن يكون منه إقلاع وعزم ، بخلاف العاصي ؛ العاصي يرِد عليه الندم مرات ، وتارة يقلع ويعود تغلبه نفسه ، ويعزم على الإقلاع ويرجع ، وهكذا وهو والذنب سِجال ، أما صاحب البدعة لا يندم ، وعلى ماذا يندم !! وهو يرى أن هذا هو الهدى وهذا هو الحق ، وهو دين الله ﷻ .
قال: ((**إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة**)) ؛ هل معنى ذلك أن صاحب البدعة لا يتوب ؟ وهل أيضاً معنى ذلك أن صاحب البدعة لو تاب لا يُقبل منه ؟ الجواب لا ؛ ليس هذا معنى الحديث ؛ وإنما معنى الحديث : بيان خطورة البدعة على صاحبها وتغلغلها من نفسه وكونه يرى أنها الحق ؛ فمثل هذا لا يوفق للتوبة ، وقد يمن الله ﷻ على بعض المبتدعة أو كثير منهم فيتبصّرون الحق ويعرفون الهدى ويرجعون إليه ، ومن يقرأ التاريخ يجد أن عددًا من المبتدعة وبعضهم كانوا رؤوساً في البدعة هداهم الله ﷻ إلى الحق وبصَّرهم به وتابوا وندموا مما كانوا عليه من خرافة أو بدعة أو ضلالات المتكلمين ، تاب عدد منهم ورجعوا عن الباطل الذي كانوا عليه وأعلنوا توبتهم صريحةً إما في كتاب أو في مجلس أو في خطبة جمعة أو نحو ذلك .
فقد يوفَّق ؛ يعلم الله ﷻ منه صدقاً ونصحاً وحرصاً ، وقد يكون يلهج بالدعاء إلى الله ﷻ أن يهديه فيُهدى إلى صراط الله المستقيم ، لكن الغالب أن من أشرب البدعة لا يتحول منها إلا إلى بدعة أخرى ، ولا ينتقل من عقيدة فاسدة إلى إلا عقيدة أخرى مثلها في الفساد أو أشد ، ولهذا كان السلف قديما يذمُّون أهل البدع بالتلوّن والتنقل من مذهب إلى آخر ومن بدعة إلى بدعة ، كانوا يذمونهم بهذا وكانوا يقولون في ذم البدع : «إياكم والتلون في

الدين» لأن هذا حال أهل البدع يتلوَّنون ويتنقلون من دين إلى آخر ومن عقيدة إلى عقيدة ليس عندهم ثبات . وقد قال بعض السلف : «مَنْ جَعَلَ دِينَهُ عُرْضَةً لِلْخُصُومَاتِ أَكْثَرَ التَّنَقُّلْ» أي : من دين إلى دين ومن مذهب إلى مذهب ومن عقيدة على عقيدة . وهذا التنقل في البدع وليد الضلال ، أما من كان على حق وعلِمه ولزمه لا ينتقل عنه بإذن الله ﷻ ولا يتحول منه إلى غيره ولاسيما إذا اجتمع له في طريق الحق صلاح الباطن وصلاح الظاهر. ولما ذكَر النبي عليه الصلاة والسلام تحوّل بعض الناس من الهدى إلى الضلال أشار إلى شيء من فساد الباطل ، قال: ((إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ -كما في حديث سهل- حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا)) .

وقد نقل ابن القيم رحمه الله في كتابه «الفوائد» عن بعض أئمة العلم أنه لا يُعرف من كان على عقيدة صحيحة عرفها وفهمها وعُمِر قلبه بها ثم يتحول منها إلى عقيدة باطلة ؛ هذا التحول لا يكون إلا من إنسانٍ عمل بظاهر الإسلام ولم يُعمر باطنه بحقائق الإيمان ، أما الذي دخل الإيمان في قلبه وذاق طعمه وعرف لذته وعرف قدره ومكانته ثم يتحول! فهذا لا يُعرف ، كما نقل ذلك ابن القيم وكما يدل ذلك الأحاديث عن رسول الله صلوات الله وسلم عليه .

والعقيدة الصحيحة تقوّي صلة العبد بالله ﷻ صدقاً معه ﷻ ولجوءً إليه ودعاءً وتذللاً وإيماناً بقضائه وقدره ﷻ وكل ذلك من أسباب الثبات على الحق والهدى ، وكذلك العقيدة الصحيحة تدعو صاحبها إلى صالح العمل وسديد القول وحسَن الخُلق ؛ وكل ذلك من أسباب الثبات على الحق والهدى . بينما البدعة تحُول بين صاحبها وبين الخير والحق والهدى وتشغَل صاحبها بأنواع من الضلالات التي تُبعده من الله ﷻ. فكل هذا يبين لنا معنى هذا الحديث والمراد به ((إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) .

وتأمل قوله ((**صاحب البدعة**)) ؛ هذا فيه إشارة إلى ملازمته لها وصحبته لها ومحافظته عليها ودفاعه عنها ، أما الشخص الذي يقع في زلة أو في خطأ أو يقع في بدعة وقلبه مستوحش منها هذا قريب من التوبة ليس ببعيد عنها، لكن الذي أشرِب قلبه البدعة وتجارت به الأهواء كما يتجارى الكلَب بصاحبه فهذا على خطر عظيم من هذا الوعيد الذي جاء في الحديث .

قال المصنف : ((**هذا مروي** -أي عن النبي ﷺ- **من حديث أنس**)) أي: بن مالك رضي الله عنه ، والحديث ثابت عن رسول الله ﷺ ، ولفظه في بعض مصادره: ((إن الله احتجز التوبة عن صاحب البدعة)) أي : يحول الله ﷻ بينه وبينها ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال:٢٤] ، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء كما صح بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ .

قال ((**ومن مراسيل الحسن**)) أي البصري رحمه الله ؛ والمرسل من أقسام الضعيف لكنه يصلح شاهداً لحديث أنس ابن مالك. ((**ومن مراسيل الحسن**)) بمعنى هذا الحديث ، جاء عن الحسن مرسلاً بمعنى حديث أنس بن

مالك ﷺ.

قال: ((**وذكر ابن وضاح عن أيوب**)) ؛ ابن وضاح من أئمة المالكية وله كتاب مطبوع بعنوان «البدع والنهي عنها» وهو كتاب قيِّم ونافع ، في هذا الكتاب نقل ابن وضاح عن أيوب السختياني : ((**قال : كان عندنا رجل يرى رأياً فتركه**)) ؛ يرى رأياً : أي كان على بدعة وعلى ضلالة ، وتعبير السلف رحمهم الله عن البدعة بالرأي لأن هذا هو ما بُنيت عليه البدعة . البدعة تُبنى على الآراء وعلى العقول وعلى التخرصات ، فكان يرى رأياً : أي ابتدع بدعةً مبنيةً على الرأي .

((**كان يرى رأياً فتركه**)) : يعني رجع عن ذلك الرأي الذي كان عليه ، لكن إلى أين ؟ مر معنا قريبًا أن من صفات أهل البدع كثرة التنقل والتلوّن؛ يرى رأياً ثم يتركه إلى رأي آخر وإلى بدعة أخرى ، تنقلٌ في أودية الضلال .

قال: ((**فأتيت محمد ابن سيرين**)) أي أيوب السختياني ذهب إلى محمد ابن سيرين .

((**فقلت أشعرتَ أن فلانا ترك رأيه**)) يعني هل بلغك أن فلان ترك رأيه ؟ يعني ترك البدعة التي كان عليها هل شعرت بذلك ؟ هل بلغك شيء من ذلك ؟

((**قال** – أي محمد ابن سيرين – **انظر إلى ماذا يتحول**)) يعني هو ترك بدعةً ولكن إلى ماذا تحول انظر!! ستجده تحول إلى بدعة أخرى ، وهذا الذي قاله محمد ابن سيرين علِمَه على ضوء ما دلت عليه النصوص ، وعلى ضوء أيضا حال أهل البدع حيث عُرِفوا بكثرة التنقل من بدعة إلى بدعة وضلالة إلى ضلالة . ((**قال انظر إلى ماذا يتحول**)) يعني ما هي العقيدة الجديدة التي ذهب إليها أو البدعة الأخرى التي تحول إليها ؟

((**إن آخر الحديث أشد عليهم من أوله**)) ؛ ما هو آخر الحديث؟ ((**يمرقون من الإسلام ثم لا يعودون إليه**))؛ هكذا قال الرسول ﷺ ((**ثم لا يعودون إليه**)) ؛ يمرق ثم لا يعود . قوله ((**ثم لا يعودون**)) هي أشد من قوله ((**يمرقون**)) لأن الذي يمرق ويعود أمره أهون من الذي يمرق ولا يعود ، فآخر الحديث أشد ، فهو لم يقتصر في وصفه لهم بقوله ((**يمرقون من الدين**)) بل زاد على ذلك أمر أشد وهو عدم العودة قال: ((**يمرقون من الدين ثم لا يعودون إليه**)) ؛ ولهذا قال ابن سيرين : «آخر الحديث أشد عليهم من أوله» وهو إخبار النبي عليه الصلاة والسلام أنه لا يعود .

وهنا يتساءل متسائل : لماذا إذا مرق من الدين إلى البدعة والضلالة وأُشرب قلبه البدعة لا يعود؟

عرفنا ذلك فيما سبق ؛ لأن البدعة التي أشربها قلبه قد أحبها ومال قلبه إليها وأعتنقها ورأى أنها هي الحق والصواب فلا يعدل عنها ولا يرجع إلى الحق والهدى ، وإذا كان اكتسب بهذه البدعة زعامةً أو رئاسةً أو حظوظاً عظيمة من الدنيا فهذه أيضا تزيده تمسكاً بالباطل الذي عليه ، بل جاء في الحديث في شأن من يطلب لنفسه زعامة كيفما كان ؛ أن الرجل يقرأ القرآن ثم يقول أنه لم يجد أحداً اتبعه فيفتح باب ضلالةٍ حتى يجد أتباعاً ، جاء حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام في سنن أبي داود وغيره بهذا المعنى قال «مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أفتتح لهم باب

ضلالة» يريد زعامة فقرأ القرآن فلم يجد أتباعًا له ثم يقول«مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أفتتح لهم باب ضلالة» ، جاء هذا الأثر عن أحد الصحابة: «يُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ : مَا لِلنَّاسِ لَا يَتَّبِعُونِي وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ ،مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ ، فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ» ؛ فبعض الناس قد يكون سيره في البدعة لزعامةٍ ولرئاسةٍ ولتسلطٍ على الناس ولإشباع غرائز باطلة ، فمثل هذا لا يوفق للتوبة ويشمله قول النبي عليه الصلاة والسلام ((إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) .

قال : ((**إن آخر الحديث أشد عليهم من أوله ؛ يمرقون من الإسلام ثم لا يعودون**)) ؛ هذا الحديث ورد في بدعة الخوارج ، وقد سبقت الإشارة إليه قريباً ، وبدعة الخوارج هي من أشد البدع التي يتعصب لها أصحابها ويستمسك بها أربابها ، وذلك لأنهم يرون في أنفسهم أنهم الوحيدون على وجه الأرض حماة الدين وأنصاره وأن حماية الدين لا تكون إلا بطريقتهم ، فهو لا يرى نفسه فقط على الدين ؛ بل يرى نفسه أنه هو الوحيد الذي يعمل لحمايته ، وأن حماية الدين لا تكون إلا بهذا الطريق الذي سلكه ، فمثل هذا لا يوفق للتوبة ؛ لأنه يرى أنه هو الذي على الدين ويرى أيضا أنه هو الذي يحمي الدين . وقد كان من طريقة هؤلاء الدعاة إلى عقيدة الخوارج في قديم الزمان وحديثه كان من شأن هؤلاء في بث العقيدة : أول ما يبدؤون به مع من يدعونه بقطع صلته بأهل العلم وأهل الحق وأهل الهدى وتزهيده فيهم وانتقاصهم عنده وسبهم حتى يسقطوا من عينه ولا يبقى لهم مكانة في قلبه ، وهذا أيضا من الحوائل والحجُب التي توضع لأمثال هؤلاء لئلا يعودوا إلى الحق والهدى ، لأن قلبه كره أهل العلم ، كره حملة الحق كره أنصار الحق وأعوانه ؛ فإذا حيل بينه وبينهم ومُلئ قلبه كراهيةً ومقتاً لهم كيف يكون منه سماعٌ لهم فضلاً عن أن يكون منه قبول !! فهو لا يسمع أصلاً لهم كلمة فضلاً عن أن يتقبل حقاً يدعون إليه ، وهذه كلها من الأشياء التي تؤكد معنى الحديث من حيث واقع أصحاب البدع ولاسيما وخاصةً الخوارج الذين قال فيهم عليه الصلاة والسلام : ((يمرقون من الدين ثم لا يعودون إليه)) .

قال : ((**وسئل أحمد بن حنبل عن معنى ذلك**)) الإشارة في قوله «ذلك» : أي إلى الحديث الذي هو قول النبي ﷺ ((إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) ؛ سئل كما في مصادر هذا الأثر عن الإمام أحمد رحمه الله عن معنى ((إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) ما المراد به ؟

((**فقال : لا يوفق للتوبة**)) أي لا يوفقه الله ، والتوفيق بيد الله ، وفي القرآن : ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [هود:٨٨] ، فالتوفيق بيد الله ﷻ يهدي من يشاء ويضل من يشاء .

((**قال : لا يوفق للتوبة**)) وهنا أيضا أمر آخر أشير إليه في عدم توفيق هؤلاء للتوبة وهو : أن هؤلاء زُيّن لهم سوء عملهم فرأوه حسنا كما قال الله ﷻ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[فاطر:٨] ، زُيّن له سوء عمله : أصبح عمله في عينه زيناً وحسناً وجميلاً وطيباً فلِمَ يتوب منه

وهو يراه من أحسن الأعمال وأطيبها؟ وكيف يتوب منه وهو يراه عملاً صالحا !! فالبدعة من مصيبتها على أصحابها أنها تتزين لهم وتتجمل ، وأيضا دعاتها يجمّلونها ويزخرفونها في أعين من يدعونهم إليها ، وهذه أيضا من الحجب التي تحُول بين الإنسان وبين التوبة من البدعة والرجوع إلى الحق ، لأن البدعة تُزيَّن له وتتزين له ويراها حسنة فيكون ذلك حائلا وحاجبا بينه وبين أن يتوب إلى الله تبارك وتعالى من بدعته .

وأمر آخر : وهو ما دل عليه قول الله ﷻ ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[محمد:١٧] ؛ اهتدوا: أي ساروا في طريق الهدى ، والهدى: هو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ)) ؛ فمن سار في طريق الهدى الذي هو السنة وأمّر السنة على نفسه وسعى في طلبها وجدّ واجتهد في تحصيلها ولم يجعل في نفسه حائلاً من قبولها ، فمثل هذا يزداد هدىً وصلاحاً كما قال الله: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ ، أما الذي لا يعظّم السنة ولا يعرِف حُرمتها ويُذكر له الحديث فيردّه ويكذّبه أو يسعى جاهداً في تحريفه وصرفه عن معناه وعن دلالته وأطره إلى بدعته ؛ فمثل هذا وقع في هذه الحوائل التي تحول بينه وبين التوبة . وهذه الحوائل وضعها أئمة البدع لأتباعهم لتكون حائلاً بينهم وبين التوبة إلى الله ﷻ ، وحتى لا يقبلوا الهدى الذي جاء في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام؛ فوضعوا طرائق لرد معاني الآيات وطرائق لتكذيب الأحاديث الثابتات عن رسول الله ﷺ تحريفاً للنصوص وتكذيباً، فهذا التحريف والتكذيب هو في الحقيقة من الحوائل والحجب التي تحول بين الإنسان وبين الحق والهدى.

وعلى كل حال ؛ قول النبي ﷺ ((**إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة**)) معناه : أن البدعة وما يكتنفها تكون حائلاً للقلب عن قبول الحق والرجوع إليه . وليس معنى ذلك – كما قدّمت – أن صاحب البدعة توبته غير ممكنة ، توبة صاحب البدعة ممكنة وواقعة أيضاً ؛ الخوارج الذين ورد فيهم هذا الحديث ((**ثم لا يعودون**)) لما ناظرهم ابن عباس رضي الله عنهما رجع منهم أربعة آلاف ، لما ناظرهم في مناظرة مشهودة مشهورة رجع منهم عدد كبير جداً ، وأيضا العلماء يشيرون إلى أن الغالب في الرجوع في العوام وفي الأتباع وفي من لم تتغلغل البدع في قلوبهم ، أما الذي أشربت – والعياذ بالله – قلبه بدعة وأظلم قلبه ببدعة فإنه لا يقبل الحق ، ولهذا لما وصل ابن عباس إلى أولئك من أجل المناظرة أراد بعض كبراء هؤلاء أن يقطعوا وأن يحولوا بين الناس وبين التوبة فقالوا محذرين للناس من ابن عباس : «إنه من قريش ، والله ﷻ قال عن قريش ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[الزخرف:٥٨] فاحذروه» ، فنزّلوا ما وصف الله ﷻ به المشركين في هذا الصحابي الجليل حَبر الأمة الذي جاء لدلالتهم على السنة ، فوضعوا حائل. ومثل هذا الكلام قد يخلْخِل الجاهل ويؤثّر فيه .

فالكبراء الذين أشربت قلوبهم البدع الأمر فيهم أعسر وأشد ، وأما الأتباع والجهال والعوام وبسطاء الناس فهؤلاء قريبون من الحق وقريبون من الهدى ، وإذا قيل له كلمة الحق وبُصِّر بها ودُل عليها رجع ، بخلاف الذي هو متمكن

من البدعة ولُقِّن الحجة ، وكان السلف رحمة الله عليهم يحذّرون من مجالسة أهل البدع يقولون لأن صاحب البدع ملقَّنٌ حجته ، فما كانوا يستمعون إليهم لأن لهم شبهات ، والشبهات توهي القلوب وتفسد الأفكار وتُضر بالناس غاية الضرر ، فكانوا يحذِّرون من مجالسة أهل البدع وخاصةً الرؤوس الذين يحملون أنواع الشبهات ، أما العوام والبسطاء فما أقربهم من الحق ، قريبون جداً من الحق ، وكلمات قليلة تكفيهم في الرجوع إلى الحق والعودة إليه .

والقصص في هذا عبر التاريخ في عودة عدد من المبتدعة ممن وقعوا في البدعة القصص في ذلك كثير ، يعودون أفرادً ويعودون أيضاً جماعات؛ مثل رجوع أربعة آلاف من الخوارج بعد المناظرة التي كانت بين ابن عباس وبين الخوارج . وأيضا من تلوثوا بهذه الأفكار في زماننا وصلت إليهم كلمة أكابر أهل العلم وكتب الله ﷻ لهم هدايةً فتابوا وألقوا أسلحتهم ورجعوا إلى الحق والهدى بمنّ الله تبارك وتعالى وفضله .

هنا عندما يقرأ الإنسان هذا الحديث ((**إن الله احتجز التوبة عن صاحب البدعة**)) والله إن هذا الحديث يجلب لقلب العاقل خوفاً أن يدخل في هوى من الأهواء ثم يتجارى به هذا الهوى إلى أن يتغلغل في نفسه ويتمكن منه ويدخل في كل عرق ومفصل منه ثم لا يعود إلى الحق والهدى ، يمشي في هذه الحياة يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، فهذا الحديث يجلب للقلب خوفاً من البدع والضلالات والأهواء ، ويجلب له أيضاً انكساراً وذلاً بين يدي الله ﷻ أن يعصمه وأن يحميه وأن يسلّمه وأن يقيه من هذه البدع وغوائلها وجناياتها على أصحابها وأربابها ، يسأل الله ﷻ أن يعيذه من ذلك ، ولهذا صح في الدعاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول ((اللَّهُمَّ إني أعوذ بك مُنْكَرَاتِ الأَخْلاقِ، وَالأَعْمَالِ، وَالأَهْوَاءِ، وَالأَدْوَاءِ)) . والهوى الذي هو البدع شأنه خطير على قلب الإنسان إذا دخل على القلب ، وهو أخطر على الإنسان بمراحل كثيرة من المعصية ؛ المعصية مع خطورتها أمرها أهون ، لكن البدعة شر مستطير وفساد عريض إذا دخل فيه الإنسان، فهذا الحديث يخيف العاقل من البدع .

ثم هنا إذا وجد الخوف في قلب الإنسان من البدعة ما الذي عليه أن يفعله ؟ ثمة أمور عديدة هنا ينبغي أن يسلكها من خاف على نفسه البدعة :

- الأمر الأول : أن يكثر من الالتجاء إلى الله ﷻ والإلحاح إليه ﷻ أن يهديه صراطه المستقيم ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾[الفاتحة:٦-٧] ، يسأل الله الهداية كما في دعاء الفاتحة ويتعوذ بالله ﷻ من الضلال كما في أدعية كثيرة عن رسولنا عليه الصلاة والسلام ؛ ومنها ما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ كان يقول في دعائه: ((اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ ، أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي ، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ)) ، الشاهد قوله «أَنْ تُضِلَّنِي» ؛ يتعوذ بالله ﷻ من الضلال . بل كان عليه الصلاة والسلام في كل مرة

يخرج من بيته يقول: ((اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ)).

- الأمر الثاني : أن يعظّم السنة في قلبه وأن يكون لها حرمة في نفسه ، وإذا بلغه كلام الله وكلام رسوله ﷺ لا يقدِّم عليه قول أحد كائناً من كان مهما علا قدره وعلت منزلته ، إذا كان ابن عباس رضي الله عنه قال في مسألة من مسائل الفروع والمفاضلة بين الأنساك : «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنْ السَّمَاءِ؛ أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ!!» ؛ فكيف بمن يردّ السنة الصحيحة الصريحة ويقبل البدعة التي ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان !! والإمام أحمد رحمه الله يقول: «عجبت من قوم عرفوا الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأي فلان وفلان ، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣]». فالأمر الثاني أن يعظم الإنسان السنة وأن يؤمّرها على نفسه ، وقد قال أهل العلم قديماً : «مَنْ أَمَّرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ»، وقال الإمام مالك رحمه الله : «السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق وهلك». فيتعوذ بالله ﷻ من البدع ويعظّم السنة ويجاهد نفسه على لزومها علماً وتعلّماً وعملاً وتعليماً .
- الأمر الثالث : أن يحترم العلماء الذين هم دعاة للسنة وهداة إليها ، وأن يعرف أقدارهم ، وأن يحذر أشد الحذر من انتقاصهم أو سماع انتقاصهم ؛ لأن هذا من الحوائل والحُجب التي توضع بين الناس وبين قبول الحق والهدى: الوقيعة في حملة السنة ودعاة الحق والهدى ، فهذا أمر ينبغي أن يتنبَّه له الإنسان .
- الأمر الرابع : أن يحذر من مجالسة أهل البدع ، قال الحسن البصري رحمه الله : «ليس للمرء أن يجلس مع من شاء» ، وقال بعض السلف : «من فقه الرجل مأكله ومشربه وممشاه» ، وأعظم من ذلك قول النبي ﷺ فيما صح عنه في سنن أبي داود وغيره أنه قال : ((الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ)) وكانوا يقولون : «اعْتَبِرُوا النَّاسَ بِأَخْدَانِهِمْ» يعني انظر إلى جليس الشخص تعرف توجهه وعقيدته . فيحذر الإنسان أشد الحذر من مجالسة أهل البدع ودعاة البدعة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ أَخْوَفُ مَا أَخَافُ على أمتي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ)) ؛ أي دعاة الضلال ودعاة الباطل ، فإذا كان النبي ﷺ يخاف على أمته من هؤلاء فكيف يجالسهم الإنسان ويسمع إليهم!! .
- الأمر الخامس : وهو أن لا يقرأ كل كتاب ؛ وإنما يقرأ الكتب التي بُنيت على السنة وأسست على الحق والهدى، أما الكتب التي أقيمت على الفكر وعلى العقول وعلى الأهواء وعلى الآراء فكل هذه يحذر منها الإنسان ، لأنه قد يقرأ فيها فتجره عبارة منمقة أو كلمة مزوقة وتشده إلى الضلال والبدعة .
- الأمر السادس : وهو ما استجدَّ في زماننا هذا من وسائل جرّت إلى الناس شبهات كثيرة وهي : القنوات والشبكة العنكبوتية ، بعض الشباب يجلس أمامها ومن باب حب الفضول وحب الاستطلاع يدخل في مواقع

أهل البدع ويقول ننظر ماذا عندهم وماذا يقولون؟ فيسمع لهذا ويسمع لذاك حتى يُشرَب قلبه البدعة – والعياذ بالله – ، وإذا كان الأئمة الأكابر يوصون تلامذتهم المتميزين في العلم والطلب والمتأهلين للرد على أهل البدع بعدم التعمق في النظر إلى البدعة عند الرد عليها ، مثل تلك الوصية العظيمة التي أوصى بها شيخ الإسلام تلميذه ابن القيم ، ويقول ابن القيم : «نفعني الله بهذه الوصية نفعاً عظيما ؛ قال لي : اجعل قلبك للشبهة مثل المرآة ولا يكن قلبك للشبهة مثل الاسفنجة » ؛ المرآة تعكس الشيء مباشرة ، أما الاسفنجة فهي تشرب وتمتص . فلا يمتص الإنسان الشبهة ويمكّنها من قلبه ، إذا كان في مقام الرد ، أما إذا كان ليس أهلاً للرد فلا ينظر أصلاً ، ونظره وجلوسه وسماعه وهو ليس من أهل الرد على البدع مخاطرة بدينه ، وقد قال السلف رحمهم الله: «إن كنت مخاطِراً بشيء فلا تخاطر بدينك» . ومع ما تقدم كله يقول أحد أهل العلم: «ليس العجب ممن هلك كيف هلك ، ولكن العجب ممن نجا كيف نجا» ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ [ص:٢٤] ، والتوفيق بيد الله ﷻ فهو الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل .

ونسأله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يهدينا إليه جميعا صراطا مستقيما ، وأن يثبتنا على الحق والهدى ، وأن يعيذنا من البدع والأهواء ، وأن يصلح لنا شأننا كله؛ إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء ، وهو أهل الرجاء ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الدرس الحادي عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال الإمام رحمه الله وغفر له وللشارح وللسامعين :

باب قول الله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ **إلى قوله** ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٧] ، وقوله: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [البقرة:١٣٠] .

****

قال المصنف رحمه الله : **باب قول الله تعالى** ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ جعل المصنف رحمه الله هذا السياق العظيم المبارك من سورة آل عمران عنواناً لهذه الترجمة التي أراد من خلالها أن يبين أن حقيقة الإسلام ونيل فضائله العظام لا يكون بالانتساب المجرد ؛ وإنما لابد مع ذلك من وجود حقيقة الإسلام والاستسلام لله ﷻ ، ولزوم نهج الأنبياء ، وتحقيق التوحيد الذي دعَوا إليه ، وأن لا يرغب الإنسان عن شيء منه ، أما مجرد الدعوى فإنها لا تكفي ، فكم من أناس يدّعون أشياء وهم في الحقيقة أدعياء «والدعاوى مالم يُقَم عليها بيّنات فأصحابها أدعياء» ؛ فأراد رحمه الله أن يبين بهذه الترجمة أن الإسلام لا يكفي فيه الانتماء المجرد ، بل لابد فيه من وجود حقيقة الإسلام والاستسلام ، ولزوم التوحيد والإيمان الصحيح الذي بعث الله تبارك وتعالى به أنبياءه ورسله، وإلا الدعاوى كثيرة ، وادّعاء الإنسان ما ليس فيه كثير ، كأن يدّعي لنفسه أنه من الأتقياء ، أو يدّعي لنفسه أنه من الصالحين ، أو يدّعي لنفسه أنه من المحسنين ، أو نحو ذلك ، أمر الدعوى يسيرٌ على كل لسان وسهلٌ على كل إنسان لكن ذلك لا عبرة به ، والعبرة في حقيقة الاستسلام لله ﷻ . فالمصنف رحمه الله أراد أن يبين هذا الأمر ، وأن فضل الإسلام وفضائله العظام لا ينالها أحد بمجرد ادِّعائه ، بل لابد من معرفة الإسلام ولزومه والاستمساك به وعدم الرغبة عنه ، فمن كان كذلك فهو الذي ينال فضائل الإسلام وخيراته .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ إلى آخر السياق المبارك ، هذا سياقٌ جاء في الرد على اليهود والنصارى في دعوى مجردة ادَّعوها ؛ اليهود ادّعت أن إبراهيم ما كان إلا يهودياً ، والنصارى ادّعت أن إبراهيم ما كان إلا نصرانياً ، ومعنى ذلك أنهم يدَّعون لأنفسهم أنه معهم وأنهم معه ، وأنه منهم وأنهم منه . وقد ذكر بعض أهل العلم أن للآية سبب نزول وهو : أن أحبارًا من اليهود وجماعةً من نصارى نجران تجادلوا عند النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فقال أحبار اليهود: ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً ؛ فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآيات الكريمات ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؛ أي ليس لكم عقول ؟!

والله ﷻ أبطل دعوى هاتين الطائفتين أن إبراهيم منهم بعدة أمور بُيِّنت في هذا السياق العظيم المبارك :

- الأمر الأول : أن ادّعاءهم هذا مبنيٌ على خوضٍ منهم فيما ليس لهم به علم ؛ قال: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ

عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ؛ فهذا رد على هؤلاء أن خوضهم في هذا الأمر خوضٌ في أمرٍ لا علم لهم به ، ولو أن خوضهم هذا وجدالهم هذا في أمرٍ لهم به علم مما أنزِل عليهم في التوراة بيانه من أحكام الحلال والحرام لقُبِل ذلك ، لكن هذه محاجة في أمرٍ لا علم لهم به ،. وقد استفيد من هذه الآية : تحريم خوض الإنسان ما ليس له به علم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء:٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣]. إذًا هذا الوجه الأول في الرد على هؤلاء أن هذه الدعوى مبنية من هؤلاء في أمر لا علم لهم به ؛ وهذا باطل ومحرم .

- الوجه الثاني في الرد على هؤلاء وإبطال دعواهم: من الناحية التاريخية ؛ فالله ﷻ يقول : ﴿ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ؛ ولهذا نبه بعض علماء التفسير أن من فوائد هذه الآية : أهمية العناية بالتاريخ في باب الرد على دعاوى أهل الباطل ، فهنا أبطِلت دعوى هؤلاء من ناحية تاريخية ؛ اليهود يقولون أن إبراهيم عليه السلام يهودياً ، والنصارى يقولون إن إبراهيم عليه السلام نصرانياً ، والتوراة التي أنزلت عليهم والإنجيل الذي أنزل على النصارى ما وُجدت وما أنزلت إلا بعد إبراهيم ؛ فكيف يكون إبراهيم يهودياً وكيف يكون نصرانياً والتوراة التي أنزلت على موسى والإنجيل الذي أنزل على عيسى لم يكن إلا بعد إبراهيم بزمان ؟! فهذه إبطال لهذه الدعوى من الناحية التاريخية .

- الوجه الثالث في إبطال دعوى هؤلاء : تبرئة إبراهيم عليه السلام من هؤلاء ومما هم عليه ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ ؛ هذه تبرئة له من هؤلاء ، ﴿ وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ؛ وهذا أيضا فيه تعريض ببيان حال هؤلاء وما هم عليه من الشرك والكفر بالله ﷻ ، وأن إبراهيم عليه السلام براء من ذلك كله فهو حنيف ؛ أي مائل متجانب عن الشرك وعن الباطل وعن أنواع الضلال إلى الإخلاص لله وتوحيده والاستسلام له ﷻ وامتثال أمره ، هذا شأن إبراهيم ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ ؛ ليس على ما عليه اليهود ولا على ما عليه النصارى ؛ بل كانت ملته ودينه الحنيفية ، قال تعالى في آية أخرى ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحج:٧٨] ، الحنيفية هي ملة إبراهيم ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل:١٢٠] ؛ فهذه ملة إبراهيم البعد عن الشرك، ﴿ وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ﴾ «حنيفاً» : أي مائلا عن الشرك وعن كل باطل ، و«مسلماً» : أي مستسلما لله منقاداً له ﷻ ، وسيأتي قول الله ﷻ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ ﴾ ؛ فهذا شأن إبراهيم الخليل عليه السلام : إسلام لله واستسلام لأمره تبارك وتعالى .

إذًا هذا السياق العظيم المبارك أفاد أن مجرد الدعوى لا تكفي ، الآن كما نرى ؛ اليهود ادّعوا أن إبراهيم منهم، والنصارى ادّعوا أن إبراهيم منهم ؛ وهذا يعني أنهم أتباعه وعلى ملته ، وأولئك أيضًا يدّعون أنهم أتباعه وعلى ملته، وكذلك المشركون يدّعون لأنفسهم أنهم على ملة إبراهيم ، وكل هذه دعاوى لا قيمة لها ولا تفيد الإنسان . فعُلم من ذلك أن مجرد الدعوى لا تكفي ؛ وإلا أمر الدعوى سهل ؛ ادّعى اليهود لأنفسهم قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة:١٨] ، وأيضاً تخاصموا هم والنصارى في ادعاءات قالوا : ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾[البقرة:١١١] ؛ أمر الدعوى سهل ، سهل أن يحرك الإنسان طرف لسانه بادعاءات وزعم كاذب ولكن كل ذلك لا قيمة له ، لابد من وجود حقيقة الإسلام والاستسلام لله ﷻ ، ولهذا الله ﷻ بعد ذلك لما كشف زيف الدعوى وأوضح بطلانها قال عقب ذلك : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ ؛ لاحظ كلمة ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ ؛ أما مجرد الدعوى هذا لا قيمة له . ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ ولو كان من الناس من هو أقرب الناس إليه ولم يتبعه ليس من إبراهيم وإبراهيم ليس منه ، ولهذا تبرأ إبراهيم من أبيه ومن قومه ؛ مع أن أبا إبراهيم أقرب الناس إليه نسباً تبرأ منه ، لأن الأمر يعود إلى وجود حقيقة الإسلام والإتباع . ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ ؛ هؤلاء هم أولى الناس به .

﴿ وَهَٰذَا النَّبِيُّ ﴾ : أي محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ : أي معه مع محمد ﷺ . هؤلاء هم أولى الناس بإبراهيم. أولى الناس بإبراهيم هم أتباعه الذين آمنوا به وصدّقوه وساروا على نهجه ، وكذلك نبينا ﷺ الذي بُعث بالحنيفية السمحة ملة إبراهيم ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا ﴾[الحج:٧٨] ، فملة إبراهيم هي ملة محمد ﷺ وهو على ملته ويدعو إلى ملته صلوات الله وسلامه عليه . فإذًا أولى الناس به أتباعه ، ونبينا عليه الصلاة والسلام ، وأتباع نبينا ﷺ ، أما المشركون واليهود والنصارى وغيرهم من أرباب الديانات وإن ادّعوا أن إبراهيم منهم أو أنهم منه فهذه دعوى زائفة وكلام كاذب ليس هناك واقع يصدّقه ، بل الواقع على نقيض ذلك وعلى خلافه ؛ إبراهيم له نهج وهؤلاء لهم نهج آخر ، والله ﷻ يقول : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران:٣١] ، ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾ : أي أن مجرد الدعوى لا تكفي .

قال : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؛ قوله هنا في هذا السياق ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ دليلٌ واضح على أن أصحاب الدعاوى الزائفة لا عقل لهم ، يعني أن من يقول عن نفسه أنه على ملة إبراهيم وهو على الشرك بالله ﷻ ، أو يقول أنا على ملة محمد ﷺ وهو لا يلزم نهجه بل

على البدع والخرافات ؛ هذا دليل على عدم العقل ؛ لأن قوله "إنني على ملته" هذا يدل على وجود قناعة عنده بأن ملته هي الملة المرتضاة وهي الملة المقبولة ولهذا انتسب ، ولولا وجود هذه القناعة لم ينتسب ، ثم مع وجود هذا الانتساب المدّعى يناقض أعماله فأين العقل!! أين العقل في حق من عرف أن ملة إبراهيم هي الملة المرتضاة وهي الملة المقبولة ثم ادّعى لنفسه أنه على ملته ثم أخذ يمارس في واقعه العملي أعمالاً على نقيض ما كان عليه إبراهيم وما كان عليه الأنبياء عموماً عليهم صلوات الله وسلامه من التوحيد والاستسلام لله ﷻ!! فلا توحيد لله ولا استسلام لله ثم يدَّعي لنفسه أنه على ملة إبراهيم !! هذا دليل على فقدان العقل ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . إذاً هذا يفيدنا أن أرباب هذه الدعاوى الباطلة لا عقول لهم ، وإلا لو كان عندهم عقولٌ راجحة لأتْبعوا الدعوى ببرهانها وبما يصدّقها من الاتباع لنهج الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه .

قال: ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ؛ حاججتم في أمور لكم بها علم أي مما وجد تبيانه في التوراة والإنجيل من الأحكام والأوامر ونحو ذلك ، فلِمَ هذا الخوض والمجادلة في أمرٍ ليس لكم به علم ؟ وهو خوضكم في إبراهيم عليه السلام وادّعاء كل طرف منكم أن إبراهيم على ما هم عليه ؛ فاليهود يقولون منا والنصارى يقولون منا ، فهذا خوضٌ بلا علم وهو من أعظم الآثام ومن المحرمات العظام ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

ثم برأ الله ﷻ نبيه إبراهيم من ذلك ومما عليه هؤلاء قال : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ ؛ ليس على ما ادّعاه النصارى ولا على ما ادعاه اليهود بل كان حنيفاً مسلماً ﴿ وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ؛ هذه ملة إبراهيم قائمة على أمرين : الحنيفية والإسلام ، الحنيفية تعني ترك الشرك . والإسلام : يعني الاستلام لله بما شرع والخضوع له تبارك وتعالى بما أمر . فهذه ملة إبراهيم الخليل عليه صلوات الله وسلامه .

ثم قال : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ ؛ لما زيّف دعوى أولئك وبيّن بطلانها من وجوه بيّن من هم الذين هم أولى الناس بإبراهيم عليه السلام ، فذكر أن أولى الناس بإبراهيم : أتباعه السائرون على نهجه ، والنبي محمد ﷺ فهو على ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ، وكذلك أتباع نبينا محمد ﷺ ؛ قال: ﴿ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

ثم قال: ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ وتأمل ختم الآية بهذه الخاتمة العظيمة : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ أي الله ﷻ يتولاهم حفظاً وتأييداً ونصراً وعوناً ، أما من سواهم فليس لهم حظ من ذلك ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ

آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[البقرة:٢٥٧] .

إذاً هذا السياق المبارك المراد من إيراد المصنف له : أن يبين أن حقيقة الإسلام لا تكون بالانتماء المجرد ؛ بل لابد من لزوم نهج الأنبياء ، والاستسلام لله ، وإخلاص الدين له ، والقيام بتوحيده وبشرعه كما أمر تبارك وتعالى؛ فهذا هو الإسلام الذي به تُنال فضائل الإسلام العظيمة .

ثم قال : ((**وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾**)) ؛ ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ : أي يميل عنها ويعدل عنها ويبتغي غيرها ويطلب غيرها . الرغبة تكون في الشيء وعن الشيء ؛ رغب فيه : أي طلبه وحرص عليه واجتهد في تحصيله. ورغب عنه : أي عدل عنه ومال عنه إلى غيره وتركه وتخلى عنه .

قال: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ؛ وملة إبراهيم هي الحنيفية السمحة وهي البراءة من الشرك ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ؛ هذه ملته ؛ ملته الحنيفية السمحة ، ملته البراءة من الشرك صغيره وكبيره ، ملته الإسلام والاستسلام لله تبارك وتعالى .

فمن رغب عن هذه الملة فقد ﴿ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ ، ومعنى ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ : أي حكَم على نفسه بالسَّفَه ، والسفه : هو خفة العقل، والسفيه هو خفيف العقل؛ عقله خفيف : أي ليس عنده عقل راجح وعقل متزن بل في عقله خفة . ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ : أي إلا من حكم على نفسه ورضي لنفسه بسفَه العقل، وهذا مثل قوله قبل قليل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؛ هذا كله من السفه ومن عدم العقل أن يمضي الإنسان في دعاوي مجردة بلا حقيقة ولا برهان ، وتكون حقيقة الإنسان الرغبة عن ملة إبراهيم التي هي ملة جميع الأنبياء وهي التوحيد والاستسلام لله ﷻ ، في السياق الأول قال ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ، وفي هذا السياق قال ﴿ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ . ومفهوم المخالفة يدل على أن من رغب في ملة إبراهيم وحرص عليها وجدّ واجتهد في تحقيقها وتتميمها فهذا يدل على رجاحة العقل ورزانته .

قال: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ ثم بيَّن الملة التي كان عليها إبراهيم وأنه عبد الله المجتبى ورسوله المصطفى قال: ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ اصطفاه الله أي اجتباه ليكون عبداً مقرباً ونبياً مرسلا ، بل هو من خيار الأنبياء ومن أولي العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ ﴾ أي اجتبيناه ، ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ اجتباه في الدنيا فكان من صفوة عباد الله واختاره الله تبارك وتعالى ليكون رسولاً يبلغ الناس دين الله بشيراً ونذيراً ، فقام بما أُمر به وافياً على التمام والكمال ، فما ترك خيراً إلا دل أمته عليه ولا شراً إلا حذّرها منه صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ؛ أي أهل المنازل العالية والدرجات الرفيعة في جنات النعيم . فهذا شأن إبراهيم الخليل عليه السلام .

ثم قال جل وعلا ممتدحاً له: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؛ أي استسلمت وانقدت لله ممتثلاً أمره منقاداً لشرعه مذعناً بطواعية وبدون تردد ، ما أن قال له ربه ﴿ أَسْلِمْ ﴾ إلا وأعلن إسلامه واستسلامه .

فهذه ملة إبراهيم الملة الحنيفية ، وهي الملة التي وصى بها إبراهيم ذريته وأتباعه ، وبها أيضاً وصى الأنبياء ، فهذه هي الملة الحنيفية ، ولا يكون الإنسان من أهلها إلا بلزومها . وهذا هو المقصود من هذا الباب .

قال رحمه الله تعالى :

وفيه حديث الخوارج وقد تقدم .

****

قال: ((**وفيه حديث الخوارج وقد تقدم**)) ؛ يشير رحمه الله إلى قول النبي ﷺ في الخوارج ((يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ)) ، وكان قبل هذا وصف عبادتهم قال: ((تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ وقراءتكم مع قراءتهم يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ)) .

لاحظ هذه الأمور التي اتصف بها الخوارج على ضوء ما دل عليه هذا الحديث ؛ الخوارج قوم يصلّون ويقرؤون القرآن ، وصلاتهم فيها اجتهاد وقراءتهم للقرآن فيها اجتهاد أيضا ؛ إذاً هم قوم ينتسبون إلى الإسلام وينتسبون لهذا الدين ، ويجتهدون في الصلاة والمحافظة عليها ، ويجتهدون في قراءة القرآن ومداومة القراءة والإكثار من قراءته كل ذلك يفعلونه ، ولكن وصفهم النبي مع ذلك كله بقوله: ((يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ)) ، والسهم معروف إذا أطلق وصوّب نحو رمية معيّنة ثم خرج من طرفها الآخر فلا يبقى ولا يستقر وإنما دخولٌ وخروج ومروق، وقد وصفهم عليه الصلاة والسلام بأنهم يصلّون ويجتهدون في قراءة القرآن بل قال مخاطبًا الصحابة ((تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وقراءتكم مع قراءتهم)) أي للقرآن الكريم ، ومع ذلك قال: ((يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ)) لماذا ؟ هنا سر وسبب هو أساس الموضوع ؛ وهو أنهم لم يجعلوا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ حاكماً عليهم ؛ مع أنهم رفعوا شعار لا حُكم إلا لله ورفعوا المصحف ويصلّون ويقرؤون القرآن باجتهاد! ومع ذلك كله قال النبي ﷺ ((يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ)) . والسبب في ذلك : أنه لم يوجد عندهم تحكيم لكتاب الله وسنة نبيهﷺ ، وإنما حكّموا أهواءهم ، كانت الأهواء هي المحكمة ، لم يكن العلم المستمد من الكتاب والسنة هو المحكّم . ولهذا

لما ناظرهم ابن عباس بالقرآن واحتج عليهم بالقرآن رجع منهم أربعة آلاف لوضوح الأمر ، الأمر واضح والدلائل بينة ليس معهم حجة ولا برهان وإنما الذي معهم هو الأهواء ، يحكمون أحكاماً بأهوائهم لا دليل عليها من كتاب الله ولا دليل عليها من سنة رسول الله ﷺ ، وإنما يمارسون أنواعاً من الظلم والبغي والعدوان والجور وإراقة الدماء والاعتداء على الأموال إلى غير ذلك من الأمور يفعلونها تديناً ويزعمون أنهم فيها على بينة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وكل ذلك ادّعاء ، ومن كتب الله ﷻ له الهداية منهم عرفها من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام لما بُينت لهم بالدليل الواضح من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ؛ ولهذا قال المصنف هنا: ((**وفيه حديث الخوارج وقد تقدم**)) ؛ الخوارج شأنهم كما تقدم أهل صلاة وأهل قراءة للقرآن وأهل انتساب للإسلام ، ومع ذلك قال فيهم رسول الله ﷺ : ((يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ)) .

ويأتي هنا السؤال الذي يتضح به مراد المصنف من إيراده لحديث الخوارج وهو: لماذا قال النبي ﷺ في الخوارج : ((يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ)) ؟ مع أنهم يصلون ويقرأون القرآن وينتسبون إلى الدين ، لم ينتسبوا لا إلى اليهودية ولا إلى النصرانية ولا إلى ملة أخرى وإنما هم منتسبون إلى الإسلام فقط ، ويصلون ويجتهدون في قراءة القرآن ويكثرون من ذكر الله ﷻ ، ولما سُئل علي عنهم قيل له أمنافقون هم ؟ قال : «المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا وهؤلاء يذكرون الله كثيرا» ، فإذاً لماذا وصفهم النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ((يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ)) ؟

يأتيك الجواب وهو : أن مجرد الانتساب للدين والصلاة وقراءة القرآن وحدها لا تكفي ، لابد من وجود حقيقة الإسلام ؛ وهو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة ؛ أن يكون في عبادته موحداً مخلصاً ، وأن يكون لحكم الله وأمره وشرعه منقاداً مستسلماً . أما الذي يجعل هواه هو الحاكم على شرع الله ﷻ فأين الاستسلام؟ وأيضا من لا يخلص العبادة لله ﷻ أين الإسلام وأين الاستسلام ؟ وهذا أمرٌ سبقت الإشارة إليه ؛ من استكبر عن عبادة الله وطاعته أين إسلامه ؟ ومن جعل لله شريكاً معه في العبادة أين إسلامه ؟ فلا يكون الإسلام إلا بالإخلاص للمعبود ﷻ ، والاستسلام له تبارك وتعالى بالطاعة ، وتحكيم شرعه سبحانه ، والانقياد لحكمه ﷻ .

قال رحمه الله :

وفي الصحيح أنه ﷺ قال: ((إن آل أبي فلان ليسو لي بأولياء ، إنما أوليائي المتقون)).

****

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث أيضا ليبين هذا الأمر ، وأن مجرد قرابة الإنسان من النبي ﷺ أو نحو ذلك لا يكفي ، قال عليه الصلاة والسلام : ((**إن آل أبي فلان ليسو لي بأولياء، إنما أوليائي المتقون**)) ؛ «آل أبي فلا»ن يشير النبي ﷺ إلى بعض من لهم به صلة من قرابة ، فيقول: ((**إن آل أبي فلان ليسو لي بأولياء**)) لماذا؟ لأنه لم يوجد فيهم حقيقة الإسلام ولم يوجد فيهم التوحيد لله ﷻ ، فقرابة الإنسان بنسبه من النبي عليه الصلاة والسلام لا

تفيده ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾[المؤمنون:١٠١] ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] ؛ فالعبرة بتحقيق التقوى لله تبارك وتعالى ولهذا قال : ((**إن آل أبي فلان ليسو لي بأولياء**)) من الوَلاية – بفتح الواو وليس بالكسر– أولياء وهي المحبة ؛ أي ليسو من أحبتي ، ليسو من أهلي ، ليسو من أهل ولايتي أي ممن أحبهم .

إذاً من هم أولياءه ؟ قال ((**المتقون**)) ؛ أي لله ﷻ ، فمن كان مؤمناً تقياً كان لله وليا. بالإيمان والتقوى تُنال الوَلاية ؛ لا بمجرد الادِّعاء ولا بمجرد أيضا صلة القرابة ، ولهذا الشرك أبعَدَ أبا لهب مع أنه عم النبي عليه الصلاة والسلام ، ونزل في ذلك وحي يتلى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ [سورة المسد] ، وأبو لهب عم النبي عليه الصلاة والسلام أخو والده ، وقرّب الإسلام سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال وهم من الموالي . فالذي يقرّب هو الإسلام ، والذي يبعِّد هو الكفر وعدم الاستسلام .

قال عليه الصلاة والسلام: ((**إن آل أبي فلان ليسو لي بأولياء، إنما أوليائي المتقون**)) ؛ الحديث يدل على أن الادّعاء لا يكفي ؛ لابد من تحقيق تقوى الله ﷻ ، وتقوى الله أحسن ما عُرِّفت به ؛ قول أحد التابعين : هي العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله ، وترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله ؛ فهذه حقيقة التقوى .

في معنى قول النبي ﷺ ((**إن آل أبي فلان ليسو لي بأولياء، إنما أوليائي المتقون**)) يقول أحدهم نظماً وقد أورده ابن رجب رحمه الله في كتابه جامع العلوم والحكم :

لَعَمْرُكَ ما الإنْسَانُ إلاَّ بِدِينِهِ ... فَلا تَتْرُكِ التَّقْوى اتِّكَالاً عَلَى النَّسَبْ

لَقَدْ رَفَعَ الإسْلاَمُ سَلمَانَ فَارِسٍ ... وقَــدْ وَضَعَ الشِّــرْكُ الشَّقِيَّ أبَا لَهَــبْ

قال رحمه الله :

وفيه أيضا عن أنس : أن رسول الله ﷺ ذُكر له أن بعض الصحابة قال: أمّا أنا فلا آكل اللحم، وقال آخر: أما أنا فأقوم ولا أنام ، وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال آخر: أما أنا فأصوم ولا أفطر فقال ﷺ : ((لكنني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم ؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني)) . فتأمل إذا كان بعض الصحابة أراد التبتل للعبادة قيل فيه هذا الكلام الغليظ وسُمِّي فعله رُغوباً عن السنة فما ظنك بغير هذا من البدع؟ وما ظنك بغير الصحابة؟ .

****

قال رحمه الله : ((**وفيه أيضا عن أنس أن رسول الله ﷺ ذُكر له أن بعض الصحابة قال: أما أنا فلا آكل اللحم، وقال آخر: أما أنا فأقوم ولا أنام ، وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال آخر: أما أنا فأصوم ولا أفطر**)) ؛ هؤلاء نفر من أهل الاجتهاد والحرص على العبادة والتديّن جاءوا وسألوا في بيت النبي ﷺ عن عبادته ، عن صلاته ، عن قيامه لليل ، عن صيامه ؛ فوجدوا أنه عليه الصلاة والسلام متزوج وله أكثر من زوجة ، والزواج والصلة بالزوجة له متطلبات و ((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي)) ، وجدوا أيضا أنه يأخذ حظه من نوم الليل ؛ ينام حظاً من الليل ويقوم حظا منه ، وأيضا ليس كل وقته في صلاة ، بل يصلي ويقوم بأعمال أخرى في أوقات أخرى ، فسألوا عن عبادته فوجدوها بهذه الصفة فتقالوها ورأوا أنها أقل من المطلوب ؛ قالوا هذا قليل !! تقالوا عبادة من ؟ أفضل عباد الله ﷻ !! ليس في عباد الله أفضل عبادةً منه عليه الصلاة والسلام ، فتقالوا العبادة ثم نشأ عندهم مخالفة .

لاحظ هنا متى تنشأ المخالفة عند الإنسان ؟ عندما يوجد فيه شيء من الرغبة عن السنة . والرغبة عن السنة لها أسباب ومولدات ، ومن مولداتها : أن يرى الإنسان في السنة ما لا يكفي ، انظر هذا على سبيل المثال فيمن يجتهدون في الأذكار المحدثة ؛ تجد أحدهم في يده سبحة فيها ألف خرزة ولا نعرف في الأذكار الشرعية ما يُعدّ ألف مرة ، وتجده يعُد أشياء بالآلاف بسبحته تضبط له هذا العدد ، وفي الوقت نفسه سنن صحيحة ثابتة عن النبي عليه الصلاة والسلام في ذكر الله هو من أجهل الناس بها !! فيجتهد فيما ليس مشروع ويدع المشروع ، ولو ذكرتَ له المشروع مثلاً من أذكار الصباح والمساء يقول : "هذا قليل ؛ نحن نشتغل من بعد صلاة الفجر إلى الساعة العاشرة بالآلاف ، هذه ما تكفي، قليلة" ، فتجده يرغب عن السنة ولا يراها كافية ويراها قلية ، ويشتغل بما ليس بسنة وبأمرٍ ليس مشروعًا ، فيمضي يعد أعدادًا معينة يضبطها بخرزته أو بسبحته وهي لا دليل عليها ، ولو كان يذكر الله الذكر المطلق لا إشكال في ذلك ، فالإنسان مطلوبٌ منه أن يجتهد في التسبيح وذكر الله في كل أوقاته وجميع أحايينه ، لكن هذا التقييد وبأعداد معينة هذا أمرٌ لا دليل على مشروعيته من هدي النبي عليه الصلاة والسلام وسنته .

فهؤلاء تقالوا عبادته ﷺ ، ولما تقالوا العبادة ألزم كل واحد نفسه باجتهادٍ في أمر لا دليل على مشروعيته .

((**فقال أحدهم : أما أنا فلا آكل اللحم**)) ؛ يعني من الآن والوقت القادم لن آكل لحماً ، والنبي ﷺ يأكل اللحم، وكان يحب عليه الصلاة والسلام الذراع أو الكتف ويأكله ﷺ.

((**وقال الآخر : أما أنا فأقوم ولا أنام**)) ؛ يعني الليل كله لا أنام ، أظل قائما أصلي .

((**وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء**)) ؛ كأنه بزعمه أن الزواج يشغل عن الصلاة وعن العبادة .

((**وقال الآخر: أما أنا فأصوم ولا أفطر**)) يعني أمضي أيامي كلها صائماً لا أفطر .

فسمع النبي عليه الصلاة والسلام بكلام هؤلاء فقال : ((**لكنني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم**)) ؛ يعني كل هذه الأشياء التي قالوها هي على خلاف هديي وعلى خلاف سنتي ؛ أنا أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم كل هذه الأمور أفعلها .((**فمن رغب عن سنتي فليس مني**)) .

الآن لاحظ ملاحظة مهمة في الموضوع ؛ هؤلاء الذين فعلوا هذه الأمور فعلوها تديناً وتقرباً واجتهاداً في التقرب إلى الله ﷻ وطلب ثوابه ، ومع ذلك يقول ﷺ : ((**إني أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم ؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني**)) يعني هذه سنتي فمن رغب عنها فليس مني .

الآن أكل اللحم ؛ لو كان الإنسان لا يأكل اللحم قال أنا لا آكل اللحم لأنه ثبت لي أنه يضرني صحيا هل هذا يؤثر على تدينه على اتباعه للسنة ؟ إنسان نُصح أن لا يأكل اللحم ، قيل له إن معك المرض الفلاني واللحم يضرك فترك أكل اللحم لهذا الغرض هل يؤثر ؟ لا ، لكن لو قال أنا لا آكل اللحم متقربا إلى الله ﷻ يتدين ويتقرب إلى الله بترك أكل اللحم ، فهذا تقرب إلى الله ﷻ بما لم يشرع ، لو أن إنسانا قال : والله أنا ما آكل لحم لأني لا أشتهيه ولا أحب أكله ،نفسي ما ترغبه أجدني أعافه ، النبي ﷺ امتنع من أكل لحم الضب مع أنه مباح قال: ((أَجِدُنِي أَعَافُهُ))؛ فامتناع الإنسان من أكل اللحم خوفاً على صحته لمرض معه أو لأن نفسه لا تقبله أو نحو ذلك هذا لا يضر ، لكن هذا الذي قال ((**أنا لا آكل الحم**)) فعل ذلك على وجه التدين يريد أن يتقرب إلى الله ﷻ بهذا ، وهذا أمر ما شرعه الله له ، فالتدين والتقرب إلى الله بما شرع ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((**وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني**)) .

وذكر أنه يتزوج النساء أيضاً ؛ من ترك الزواج مثلا لفقره أو لا إربة له في النساء أو لسبب آخر هذا لا يضره، لكن لو ترك الزواج يتدين بذلك ويرى أن هذه من القربات ومن العبادات ومن الأعمال الصالحات التي يتقرب بها إلى الله ﷻ فتقرب إلى الله بترك الزواج هذا ليس على سنة النبي عليه الصلاة والسلام .

وكذلك من يُلزم نفسه بإلزام هؤلاء يصلي ولا ينام ، ويصوم ولا يفطر فهؤلاء كلهم ليسو على سنة النبي ﷺ .

لاحظ في حق من صلى وصام واجتهد في الصلاة والصيام ومع ذلك سمى النبي ﷺ هذا الاجتهاد في الصلاة والصيام رغبةً عن السنة !! إذاً لا يكفي مجرد الانتساب ومجرد الصلاة والصيام ؛ بل لابد من وجود حقيقة الاستسلام والاتباع والاهتداء بهدي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

قال: ((**ولكني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني**)) قارن قوله ((**فمن رغب عن سنتي**)) بقوله قريباً ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾؛ فالرغبة عن ملة إبراهيم عليه السلام والرغبة عن سنة النبي الكريم ﷺ لا يؤدي بالإنسان إلا إلى الهلكة والخسران ، والذي يجب على المسلم أن تقوم فيه رغبةٌ في ملة إبراهيم ورغبةٌ في سنة نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ حفظاً لها ومحافظةً عليها وعنايةً بها واجتهاداً في تعلمها والعمل بها ليكون من أهل سنته وليكون من أهل ملة إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا

وعلى جميع الأنبياء صلوات الله وسلامه. فهذا كله يبين أن الأمر لا ينال بمجرد الدعاوى بل لابد من وجود حقيقة الاتباع والالتزام بسنة النبي ﷺ .

مرة ثانية أو ثالثة : هؤلاء الآن النفر الذين أتوا إلى بيت النبي عليه الصلاة والسلام وسألوا عن عبادته ؛ اسأل هنا ما سر هذا السؤال؟ رغبة في الخير أو رغبة في الشر؟ رغبة في الخير ؛ يريد أن ينظر في عمل النبي ﷺ الذي هو القدوة ، فنظر في عمله فوجده بظنه قليلاً ، فالتزم لنفسه صلاةً أكثر وصياما أكثر من باب حرصه على الخير وحرصه على العبادة ، فالذي وُجد منهم صلاة وصيام، والذي قاله النبي ﷺ في حقهم: ((من رغب عن سنتي فليس مني)) ، صلاة وصيام ونبينا ﷺ يقول: ((من رغب عن سنتي فليس مني)) !! هذا يدلنا على أن الصيام والصلاة لابد أن يكون على السنة .

أحد السلف مرةً رأى رجلا يصلي متنفلاً بعد صلاة العصر فنهاه قال له ليس هذا وقت صلاة ، فقرأ الرجل في حقه قول الله تعالى ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾[العلق:٩-١٠] ؛ يعني تنهاني عن الصلاة والله يقول ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ ؟ قال : أنا لا أنهاك عن الصلاة ولكن أنهاك عن البدعة . فالصلاة وهي صلاة – صلة بين الله وبين عبده – إذا كانت على المخالف للمشروع لا تكون من سنة النبي ﷺ بل تكون رغبةً عن سنته، ((**ومن رغب عن سنتي** -يقول عليه الصلاة والسلام**– فليس مني**)) ، ولهذا يجب على الإنسان أن يكون في صلاته وفي صيامه وفي ذكره لله وفي عباداته ملتزماً بهدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ليكون من أوليائه ﷺ حقاً وصدقا .

ثم قال المصنف رحمه الله معلقًا على الحديث الأخير : ((**فتأمل**)) أي تفكر وتدبر في هذا الأمر ينفعك الله به. ((**تأمل إذا كان بعض الصحابة أراد التبتل للعبادة**)) ومعنى التبتل : أي الانقطاع للعبادة وشغل الوقت كله بها ، يعني ليس عنده وقت إلا للعبادة ؛ لا يأكل لحم وذاك لا ينام وذاك لا يفطر وذاك لا يتزوج أراد أن يتبتل أن ينقطع للعبادة ((**قيل فيه هذا الكلام الغليظ وسُمي فعله رغوباً عن السنة**)) أي رغبةً عنها وعدولاً عنها، قال فيهم النبي ﷺ هذا القول الغليظ: ((فمن رغب عن سنتي ليس مني))؛ سمى فعلهم رغبةً عن السنة وقال هذا القول الغليظ: ((ليس مني))؛ يعني من كان على هذا النهج .

وتأمل مرة ثانية : يصلي باجتهاد ويصوم باجتهاد والنبي ﷺ يقول ((ليس مني)) ، ويقول: ((من رغب عن سنتي))!! فتبين بهذا أنه لابد من وجود حقيقة الإسلام وهي الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة واتباع النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ولزوم ما جاء به ، ولهذا قال العلماء: لا يُقبل من الإنسان دينه وعمله إلا

بشرطين : إخلاص العمل لله ، وموافقة العمل لسنة رسول الله ﷺ ، وقد جمع الله بينهما في قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف:١١٠] .

قال الفضيل ابن عياض رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ : أخلصه وأصوبه ، قيل يا أبا علي وما أخلصه وأصوبه ؟ قال : «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ؛ والخالص: ما كان لله ، والصواب: ما كان على السنة» .

قال المصنف رحمه الله: ((**فما ظنك بغير هذا من البدع؟ وما ظنك بغير الصحابة؟**)) ؛ أمرين ينبه عليهما رحمه الله :

- الأمر الأول : يقول ((**فما ظنك بغير هذا من البدع؟**)) ؛ الصلاة والصيام عبادات مشروعة لكن الصفة التي التزمها هؤلاء في أداء هذه العبادات ليست مشروعة ؛ وهي أن يصوم ولا يفطر والآخر يصلي ولا ينام هذا أمر غير مشروع، مع أن الصلاة من حيث هي مشروعة والصيام أيضا مشروع ، والابتداع الذي وُجد هنا في هذا العمل يسمى «بدعة إضافية» ، وقد مر معنا أن البدعة تنقسم إلى قسمين : بدعة إضافية ، وبدعة حقيقية . فإذا كان النبي ﷺ قال هذا في حق هؤلاء الذين أرادوا فعل أمرٍ مشروع ولكنهم أضافوا وزادوا فيه على المشروع وأتوا فيه بأمرٍ غير مشروع ، فكيف بمن جاء ببدعة حقيقية ليس لها أصل في الشرع واجتهد فيها وحافظ عليها!! مثل من يُحيون ليالي بمسميات معيّنة – ليلة كذا وليلة كذا – يحيونها بأعمال لا دليل عندهم على مشروعية الإحياء ولا على وقته ولا أيضا على الأعمال التي يمارسونها في ذلك الإحياء لتلك الليالي ، فهي بدع حقيقية ويجتهدون فيها !! إذا كان النبي ﷺ قال في حق من قال : أصوم ولا أفطر ، وحق من قال : أصلي ولا أنام ((من رغب عن سنتي فليس مني)) ، فكيف بمن يأتي بأمور لا أصل لها في الشرع ولا وجود لها في الشرع لا في وقتها ولا في حقيقتها ولا في الأعمال التي تمارس فيها ، فكيف الأمر بمثل هذه الأعمال!! فالمصنف ينبه على هذه الفائدة ؛ يقول : إذا كان النبي ﷺ قال هذا في أعمالٍ هي مشروعة في الأصل فكيف بمن جاء بأعمال لا أصل لها في الشرع ؛ محدثة من أساسها في صفتها وفي كيفيتها وفي وقتها من أساسها محدثة ثم يفعلها متقربا بها إلى الله!! إذا كان النبي ﷺ قال في أولئك ((من رغب عن سنتي)) فماذا يقال في هؤلاء ؟ هذه واحدة.
- الثانية : قال ((**وما ظنك بغير الصحابة ؟**)) فالذين قال أحدهم أصوم ولا أفطر ، والثاني قال أصلي ولا أنام إلى آخره ، هؤلاء من الصحابة ولكنهم أخطئوا من باب شدة الحرص والرغبة في الخير ونبههم النبي عليه الصلاة والسلام على هذا الخطأ وبيّن أنه رغوب عن السنة ، وأن من كان كذلك فليس من النبي ﷺ ، والذي يُظن أن هؤلاء بلغهم هذا التوجيه وعدَلوا عن هذا الأمر الذي توجهوا إليه من باب الرغبة ورجعوا إلى ما وجههم

إليه النبي عليه الصلاة والسلام . فإذا كان النبي ﷺ قال هذا في حق بعض الصحابة فكيف بمن هو ليس من الصحابة!! ، فهذه لفتة عظيمة ينبه لها المصنف رحمه الله وكأنه يقول لك: اتق الله وانتبه ؛ ولا تتقرب إلا إلى الله مخلصًا له الدين ، ولا تتقرب إلى الله إلا بما شرعه الله لك .

- فمن لم يجعل تقربه لله خالصاً لم يُقبل منه عمل ، قال الله تعالى في الحديث القدسي: ((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)) .
- ومن تقرب إلى الله بغير ما شرع لم يُقبل منه ، قال النبي ﷺ : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) أي مردود على صاحبه .

فالواجب على المسلم أن يجتهد في تحقيق حقيقة الإسلام بالإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول ﷺ .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثاني عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال المؤلف الإمام رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح وللسامعين :

باب قول الله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:٣٠] ، **وقوله تعالى : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾** [البقرة:١٣٢] ، **وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾** [النحل:١٢٣] .

****

قال المصنف رحمه الله : ((**باب قول الله تعالى:** ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾)) ؛ هذه الترجمة عقدها المصنف رحمه الله ليبين بها حقيقة الإسلام ، وأن فضائل الإسلام العظيمة التي ينالها أهل الإسلام لا تُنال إلا بإقامة الوجه للدين ؛ بالتزامه والمحافظة عليه والعناية به والسعي في تحقيقه وتتميمه وتكميله ، وأعظم شيء في ذلك إخلاصه لله ﷻ والبعد عن الشرك ، وأن يكون المسلم حنيفاً مخلصاً بعيداً عن الشرك بالله وصرف العبادة لغير الله مقبِلاً على الله ﷻ بفعل ما أمر وإقامة فرائض الدين وواجباته . فحقيقة الإسلام ونيل فضائله العظام لا تكون إلا بهذا ؛ ولهذا أورد المصنف رحمه الله هذه الترجمة وجعل عنوانها هذه الآية الكريمة لكونها دالة على المقصود ، وساق من الآيات والأحاديث ما يبين هذا الأمر .

قال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ؛ إقامة الوجه تكون بالإخلاص لله ﷻ بأن يقبل في أعماله وعبادته وجميع طاعاته بوجهه إلى الله ﷻ ؛ فيقصده وحده ويبتغي وجه الله بالعمل يريد بعمله ثواب الله . هذه إقامة الوجه ، إقامة الوجه: بإقباله على الله تبارك وتعالى وانصرافه عما سواه ، وأن يكون مقبلا بقلبه ووجهه وعبادته وأعماله وطاعاته إلى الله جل وعلا، لا يجعل لأحدٍ بها حظا أو نصيبا ، وإنما تقع منه كلها لله تبارك وتعالى فيقصده وحده. ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ ؛ والدين: هو توحيد الله وعبادته والصلاة والصيام وكل ما شرع الله تبارك وتعالى من أوامر تُفعل ونواهي تُترك ؛ كل ذلك يشمله قوله ﴿ الدِّينِ ﴾ . الدين هو شرع الله عز وجل وما أمر الله تبارك وتعالى عباده به .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾: أي استقم على دين الله تبارك وتعالى مخلصاً له ؛ فثمة أمران هنا لابد منهما : وهو ابتغاء الله بالعمل ، والثاني : الجد في العمل بالمحافظة عليه وحفظه والعناية به ؛ فبهما يتحقق للعبد إقامة وجهه للدين ، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ بالاستقامة على الدين محافظةً عليه ، وبإيقاعه خالصا لله ، ولهذا نعيد هنا ما سبق وهو: أن من استكبر عن العمل لم يُقِم وجهه للدين ، ومن صرف العمل لغير وجه الله لم يُقِم وجهه للدين ؛ فإقامة الوجه للدين لابد فيها من الإخلاص والاستسلام ؛ الإخلاص لله: بأن يبتغى بالعمل وجه الله ﷻ ، والاستسلام لهﷻ : بفعل ما أمر. هذا معنى قوله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ .

وقوله ﴿حَنِيفًا﴾ ؛ الحنيف : هو المائل عن الباطل والضلال إلى الحق والهدى ، عن الشرك والكفر إلى الإيمان والتوحيد . ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ : اتجِه بقلبك وقالبك لإقامة دين الله الذي شرعه لك مخلصاً له ، وكن متجافياً مائلاً حذراً مبتعداً عن الباطل الذي أخطره وأشرّه على الإنسان الشرك بالله ﷻ . والحنيفية : ملة إبراهيم

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل:١٢٠] هي ملته ، فيكون العبد بهذه الصفة يعيش حياته بهذه الصفة ويبقى مجاهداً نفسه على تحقيق هذا المعنى إلى أن يتوفاه الله كما يأتي إيضاح هذا المعنى في الآية الثانية ، أن يقيم الإنسان وجهه لله بإقامة دينه مخلصا له ويثبت على ذلك إلى أن يموت على ذلك ويلقى الله ﷻ بالإسلام .

قال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ ﴾ ؛ هذا الذي طُلب من الناس إقامة الوجه للدين حنيفاً هو الفطرة، والفطرة : ما جُبل الناس عليه ، وما خُلق الناس مفطورون عليه ، ليس أبناء المسلمين فقط بل أبناء بني آدم كلهم فُطروا على ذلك ، فُطِروا على إقامة الوجه لله ، هكذا فطروا على الملة ، على الحنيفية ، ولهذا جاء في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أن الله تعالى قال : ((خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَأَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)) ، وجاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا)) ، البهيمة عندما تنتُج وتولد تراها جمعاء ؛ ليست مقطوعة أذن ولا مكسورة قرن ولا مقطوعة يد تجدها جمعاء أي مكتملة الأطراف ، وإذا رأيت فيها جدعاً ؛ أذناً مقطوعة أو قرناً مكسورًا أو يداً مبتورة فهذا الجدع لم تولد به ((حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا)) ، فهذا مثل ضربه النبي ﷺ لبيان حال المواليد من بني آدم وأنهم يولدون على الفطرة . والفطرة كما في الآية : إقامة الدين لله ، ولهذا قال العلماء : المراد بالفطرة هنا الإسلام ، وليس هذا يعني أن المولود يولد عالماً بالإسلام وتفاصيله ، وإنما المراد أن المولود يولد على الفطرة بإقامة الوجه لله تبارك وتعالى والإقبال عليه وطلب الثواب منه وأداء العبادة له ، أما تفاصيل الدين لا تُعرف بالفطرة لابد فيها من الوحي ، ولهذا قال الله ﷻ لنبيه ﷺ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢] الشاهد قوله ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ ، والمراد بقوله ﴿ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ : أي تفاصيله ، فتفاصيل الإيمان وتفاصيل الشرائع لا سبيل إلى العلم بها إلا من جهة الوحي ، وأما تهيؤ الإنسان وإقباله وقبوله وإقامة وجهه وإخلاصه لله هذه أمور فُطر الناس عليها ؛ وهي الإسلام ، وهي الدين القيم ، ولو خُلِّيَ بين الإنسان وفطرته ولم يُعبَث بها لما أقبل على غير الدين ولما قبِل غير الإسلام ؛ لأن كل العقائد مصادمة للفطر ، وغرْسها في الناس حرفٌ للفطرة ، بخلاف غرس الإسلام والتربية عليه هذا بناء للفطرة ، وقابلية القلب له قوية جداً لأنه يتواءم مع الفطرة التي فُطر عليها ، بينما كل عقيدة أخرى فغرسها في القلب حرفٌ للفطرة .

ولهذا أخذ كل العلماء من هذا فائدة عظيمة : أن التربية على الإسلام ليست عسيرة ، لأنك تربي فيه شيئاً يتواءم مع فطرته ليس شيئاً مصادماً لها ، بينما التربية على العقائد الباطلة إقحام أمور مناقضة للفطرة في القلب ومباينة لها، ولهذا يعيش أبناء الكفار صراعاً في قبول أمور فاسدة تردُّها فِطَرهم وتأباها ولكنها تُفرض عليه وتُغرس فيه

بالمخاوف وبالترغيب وبالتهديد وبذكر أمور تُغرس فيه إلى أن تذهب الفطرة ويحل محلها فساد العقائد ، ((خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَأَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)) ، ولاحظ الإجتيال : نزع الإنسان وإخراجه من شيء ثابت فيه وُلد عليه فُطر عليه ، في الحديث قال : ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)) ؛ فهو يولد على الفطرة ، على الإسلام ، على الإقبال على الله ، على إخلاص الدين لله ﷻ ، يمضي على هذه الحياة ؛ وإلا هو إذا نشأ ابناً لأحد الكفار وبين أبوين كافرين وفي مجتمع كافر ، الأبوان والمجتمع يحدُث منهم اجتيال لهذه الفطرة وقتلٌ لها ، لأنه ينشأ على أمور لا تبني فطرته بل تهدمها ، لا تقيم فطرته بل تحرفها ، وكما قدمت ينشأ في صراع إلى أن ينشأ على ما عوّده عليه أبواه وما اعتاد عليه مجتمعه من الانحراف ، وإلا في البداية يرى أموراً غير مرغوبة .

أحد المهتدين يحدّث عن نفسه وكان من عبدَة الأصنام ، نشأ في مجتمع فيه عبادة الأصنام ، يقول : " فأخذني والدي إلى المعبد فلما دخلت وجدتُ أحد الكلاب يبول على الصنم فانقبضت نفسي منذ ذلك اليوم عن هذا الدين ووجدته دينٌ مقيت ، دين مبغوض ، آتي إلى هذا الحجر لأطلب منه حاجتي وعليه كلب يبول !! يقول وبقيت على هذه العقيدة وأنا كارهٌ ومبغض لها ؛ لكن هذا هو ديني وهذا دين آبائي وهذا دين مجتمعي " ، ثم يسّر الله له أن جاء عاملاً في هذه البلاد ورأى التوحيد وأعلن توبته وأعلن كراهيته لدينه منذ صغره ولكنه لم يجد مجالاً للتخلي عنه والإقبال على دينٍ صحيح يُعرَّف به . ولهذا كثير منهم تجده كاره لدينه مبغض له لكنه معتنق له مع مجتمعه ، وما أن يلوح له أمارات التوحيد وضياء الإسلام إلا ويُقبل عليه بانشراح . وهذا يدلنا على حاجة البشرية الماسة إلى إشاعة نور التوحيد والدعوة إليه وبيان محاسن الدين حتى يُعاد الناس إلى فطرهم الصحيحة التي حُرِفت عما خُلقت له وما أوجدت عليه من إقامة الوجه لله ﷻ دون سواه .

وذكّرتني قصة هذا المهتدي بقصة مشركٍ أوردها ابن جرير الطبري رحمه الله في كتابه التفسير في أوله، ذكر أن أحد المشركين قصد صنماً من الأصنام وقطع مسافات طِوال إليه لعرض حاجاته وطلباته عليه فلما وصل إلى الصنم وجد فوق رأسه ثعلب يبول ، والبول يصب من فوق رأس الصنم إلى أخمص قدميه ، فنظر إلى هذه الحال وأنشد بيتاً من الشعر ورجع ، قال: أَرَبٌّ يَبُولُ الثَّعْلَبَانُ بِرَأْسِهِ لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ

فعلى كل حال ؛ الإسلام هو دين الفطرة ، والله ﷻ فطر بني آدم كلهم على الإسلام ؛ قبوله والإخلاص لله ونبذ الشرك والحنيفية السمحة ؛ وتفاصيل هذا الدين لا تُعرف إلا بالوحي ؛ وحي الله ﷻ .

قال : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ ؛ خَلْقِ الله : أي ما فطرهم ﷻ عليه وهو دين الإسلام ، دين الفطرة الذي لا يقبل تبارك وتعالى ديناً سواه ، فمن بدّل أو غيّر أو ابتغى لنفسه غير هذه الفطرة التي فطر الله ﷻ الناس عليها فهي مردودة عليه ، لا يقبل الله ﷻ من الناس ديناً إلا ما فطرهم عليه وهو إقامة الوجه للدين حنيفا.

قال : ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ ؛ أي دين الفطرة الذي هو الإسلام ، الذي هو إقامة الوجه لله ، الذي هو الاستسلام لله ﷻ ؛ هو الدين القيِّم ، الدين المستقيم الموصل إلى رضوان الله ﷻ وجنات النعيم . وكل طريق سواه فلا يوصِل إلى رضا الله ولا يوصل إلى جنته ، فلا يُنال رضاه تبارك وتعالى ولا تُبلغ جنته إلا بإقامة الوجه للدين ؛ الذي هو دين الله تبارك وتعالى القيم .

ثم ختم الآية بقوله ﷻ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي هذه الحقيقة مع جلائها ووضوحها وكونها مغروسة في الفطر مركوزة في النفوس لكن الواقع ﴿ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، فأكثر الناس مجتالةٌ فطرهم ، لم يبقوا على الفطرة التي فُطروا عليها بل انحرفوا إما إلى مجوسية أو إلى يهودية أو إلى نصرانية أو غير ذلك من الأديان التي لا حصر لها .

﴿ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ الذين يعلمون أقل الناس ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣] ،﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣] ، ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام:١١٦] . والآيات في هذا المعنى كثيرة ، فأكثر الناس على غير الفطرة ، فطَرهم بُدِّلت وغُيِّرت ، والأقل هم الذين سلِمت لهم فطرهم وبقيت دون تغير ودون تبدل ، وهذا أيضا يفيد أن العبرة ليست بالكثرة ، ولهذا قال بعض السلف: «عليك بالحق وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ ولا تستوحش من قلة السالكين» ، لأن العبرة ليست بالكثرة، وليس المقياس بكثرة العدد ، المقياس هو وجود الحق ولو كان الإنسان وحده ، ولهذا جاء عن ابن مسعود ﷺ أنه قال : «الجَمَاعَةُ مَا وَافَقَ الحَقّ ، وَإِن كُنْتَ وَحْدَكَ» . لو كان الإنسان وحده وهو على الحق وعلى الدين الصحيح الذي فطر الله ﷻ الناس عليه ، يقيم وجهه لله وما سواه على الشرك ؛ فالحق معه وليس معهم ، ولهذا وصف الله ﷻ إبراهيم الخليل ﷺ بأنه أمّة ؛ أي إمامٌ في الخير وحده ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

ثم أورد رحمه الله قوله تعالى : ﴿ **وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ منبّهاً بذلك رحمه الله إلى أن إقامة الوجه للدين حنيفاً الذي هو فطرة الله ﷻ هو دين الأنبياء ووصيتهم ، فوصية الأنبياء إقامة الوجه لدين الله حنيفا بالإخلاص للمعبود في الأعمال كلها ، والاستسلام له بفعل ما أمر وطاعة رسله عليهم صلوات الله وسلامه ؛ فهذا هو دين الأنبياء ووصيتهم وميراثهم ، قد قال ﷺ : ((وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)) ، والعلم الذي ورّثه الأنبياء هو هذا؛ إقامة الوجه للدين حنيفا؛ بالبعد عن الشرك والإخلاص لله ﷻ والاستسلام له ﷻ وطاعة رسله.

قال : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ ؛ وصى بها : أي هذا الأمر وهو الإسلام ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ ؛ وصاه بالإسلام والاستسلام لله ﷻ وإقامة الوجه له وإخلاص الدين له والبعد عن الشرك بأنواعه ؛ هذه وصية أنبياء الله ورسله عليهم صلوات الله وسلامه .

قال : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ ؛ وصية الأب لابنه هي وصية المشفق الحريص الذي يختار خير أمرٍ وأعظم أمرٍ يعهده لابنه . فهذه وصية الأنبياء لأبنائهم ولأممهم ؛ وصيةٌ بتوحيد الله وإخلاص الدين له ﷻ والبعد عن الشرك .

قال : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ أي ووصى بها يعقوب بنيه قائلين : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾ هذه الوصية الآن ، أعادها مع أنه أشير إليها بالضمير في قوله ﴿ وَوَصَّى بِهَا ﴾ أعاد ألفاظها تبييناً واهتماماً بها ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ؛ هذه وصية الأنبياء وهذه خلاصتها ، وهذه الخلاصة التي هي وصية الأنبياء هي في حقيقة الأمر زبدة رسالتهم وخلاصتها وصفوها .

﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾ اصطفاه : أي اختاره ورضيه ، ولا يرضى ﷻ ديناً سواه، وقد مر معنا آيات بهذا المعنى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾[آل عمران:١٩] ، ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥] ، ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] ، اصطفاه: أي اختاره دينا ولا يقبل ديناً سواه ؛ فعليكم بهذا الدين الذي اصطفاه لكم واختاره لكم ولا يقبل منكم ديناً سواه ، ولو أقام الإنسان وجهه حياته كلها على غير ما اصطفاه الله له ورضيه ديناً له لا يقبله الله منه ، لو واصل الليل بالنهار عاملاً كادًّا مجتهداً لا يقبل الله منه ، فكما أنه ﷻ لا يقبل من العمل إلا العمل الخالص؛ فهو لا يقبل من العمل إلا العمل الذي شرع وهو الدين الذي اصطفاه ﷻ لعباده وهو قائم على أمرين : إخلاص له، وعمل بما شرع لا بالضلالات والأهواء والبدع .

قال:﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾ والدين: شرْعه تبارك وتعالى القائم على توحيده وإسلام الوجه له ﷻ.

﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ : أي أقيموا وجوهكم لهذا الدين مستمرين عليه ماضين عليه محافظين عليه مجاهدين أنفسكم على الثبات عليه إلى الممات ، وهذا هو معنى قوله : ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ، وهذا مثل قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢] ؛ والأمر بالموت على الإسلام في قوله : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ يعني الاستقامة على الإسلام والمحافظة عليه

وإقامة الوجه للدين حنيفا والمضي على ذلك إلى أن يموت الإنسان . والإنسان لا يدري متى يموت ؛ قد يموت بعد يوم وقد يموت بعد ساعة ، وقد يموت بعد سنة وقد يموت بعد مئة سنة ، أمر مغيّب لا يدري عنه الإنسان ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان:٣٤] ، ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾[الرعد:٣٨] ، والموت لا يفرّق بين صغير وكبير ، قد يدخل الموت إلى بيت فيه رجل مسن جاوز السبعين أو الثمانين أو جاوز المئة ويدَعه ويأخذ طفلاً صغيرًا في البيت ، وكم من بيوت عندهم رجل مسن وبين ساعة وأخرى يتوقعون أن يفتقدوه ثم يفاجئون بافتقاد طفل صغير !! فالموت لا يفرق بين صغير وكبير ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ .

فقوله : ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ؛ بأن يحافظ الإنسان على إسلامه مستقيماً عليه مجتهداً في تتميمه وتكميله إلى أن يتوفاه الله تبارك وتعالى على الإسلام .

قال: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أمرٌ بالموت على الإسلام ، وهذا الموت على الإسلام يرجع إلى الثبات عليه ، والله ﷻ قال: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:٢٧] .

ثم أورد رحمه الله قول الله ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وهذا تتويج للمعنى السابق ؛ لما ذكر في الآية الأولى إقامة الوجه للدين حنيفا وبيّن في الآية الثانية أن هذا هو دين الأنبياء ووصيتهم ومنهم إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عليه السلام توّج المعنى بقوله : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ .

وهنا تقول : ما هي ملة إبراهيم التي أمِر نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام وأمته باتباعها ؟ ملته ما جاء في هذا السياق ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ ﴾ ، ملته هي وصيته التي أوصى بها بنيه ودعا إليها قومه : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ، هذه هي ملة إبراهيم : الحنيفية السمحة التي أمر نبينا عليه الصلاة والسلام باتباعها قال: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وملة إبراهيم هي الحنيفية السمحة ؛ إقامة الوجه للدين مخلصاً لله مطيعاً له ممتثلاً أمره عابداً له ﷻ بما شرع . ثبت عن نبينا ﷺ في أذكار الصباح أنه كان يقول – ولاحظ اجتماع هذه المعاني في هذا الذكر – : ((أَصْبَحْنَا عَلَى

فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)) كان يقول ذلك إذا أصبح ، ويقول ذلك إذا أمسى : ((أَمْسَيْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)) .

ومما ينبغي أن يُعلم هنا ويتأكد العلم به والعناية به : أن هذه الأذكار ليست مجرد كلمات تقال ، يقولها الإنسان إذا أصبح وإذا أمسى مجردةً عن العلم بمعانيها وتحقيق مضامينها ؛ ليس هذا شأنها ، وإنما هذه الأذكار فيها تجديد للتوحيد وتجديد للفطرة وتجديد للملة الحنيفية ملة إبراهيم ، تجديدٌ للزوم العهد بإتباع الأنبياء ولزوم نهجهم ، تجديدٌ لأخذ الميثاق على النفس بالبُعد عن الشرك الذي هو أظلم الظلم وأكبره ، تجديدٌ للإيمان بلزوم الحنيفية السمحة ، أرأيتم شخصاً يصبّح ويمسي بهذه الكلمات متأملاً في مضامينها مجتهداً في تحقيق ما دلت عليه ؛ فإنه يصبح على خير يوم ويمسي على خير حال ، على خير يبيت ويمسي ويصبح إذا كان على هذا الأمر ماضٍ مجدداً إيمانه مجدداً توحيده مجدداً حنيفيته وبراءته من الشرك ، مجتهداً في تحقيق هذه المعاني .

وكل المضامين التي مرت معنا اجتمعت في هذا الذكر العظيم المبارك الذي يقال كل صباح ومساء ويشرع للمسلم أن يواظب عليه ؛ ((أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ)) . لاحظ هذه الكلمات الثلاث : «حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ» هي التي مرت معنا الآن في الآيات : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ، وفي الآية الأخرى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ، وفي الآية الثالثة : ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

ولاحظ الارتباط بين جُمَل هذا الذكر الأربع : «فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ،كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ» ؛ هذه الأربعة شيء واحد أم مختلفة ؟ الفطرة : هي التوحيد ، هي لا إله إلا الله ، هي ملة محمد ﷺ ، هي دين أبينا إبراهيم عليه السلام ، فالفطرة هي لا إله إلا الله هي توحيد الله إخلاص الدين لله ، وهو الدين الذي بُعث به محمد ﷺ ، وهو ملة إبراهيم الذي أمر نبينا عليه الصلاة والسلام بإتباعه وأمِرت أمته بإتباعه ، هذا هو دين الله وهو دين الأنبياء كلهم من أولهم إلى آخرهم ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى:١٣] ، قوله في حق الأنبياء وما شرعه الله عز وجل لهم هو هذا المعنى ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ ، وهنا قال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ ؛ فهذا هو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث

الصحيح : ((الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ)) ؛ الدين الذي عليه الأنبياء واحد لكن الشرائع ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨]

حقيقة الدين : إخلاصٌ لله واستسلام لأمره ، فمن لم يستسلم لأمر الله ﷻ بما أمره به لم يقِم وجهه للدين ، وبهذا يتبين أيضا معنى سبق إيضاحه وهو : بعد بعثة محمد عليه الصلاة والسلام وما شرع الله لنبيه ﷺ لا يقبل الله من عباده ديناً سواه ، ومن عبَد الله ولو كان بشرعٍ غير مبدل –دعك من المبدَّل– بعد بعثة محمدﷺ لا يقبل الله منه، ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ لأنه ﷻ لا يقبل في كل زمان إلا ما شرع وما أمر وأوحى إلى رسله به من الشرائع ، سوى ذلك لا يقبله تبارك وتعالى .

إذًا هذه الترجمة وما فيها من الآيات وما فيها من الأحاديث التي سيأتي ذكرها عند المصنف تبين حقيقة الإسلام التي تنال به فضائل الدين العظام ؛ أنه إقامة الدين لله مخلصاً حنيفاً ثابتاً على ذلك محافظاً عليه إلى أن يتوفاه الله ﷻ على ذلك ؛ هذا هو الإسلام الذي تُنال به فضائله.

قال رحمه الله :

وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ((إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلَاةً مِنْ النَّبِيِّينَ ، وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم وَخَلِيلُ رَبِّي ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٦٨] **رواه الترمذي .**

****

قال : ((**وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلَاةً مِنْ النَّبِيِّينَ**)) ؛ أي أحبة ، لأن الولاية تعني الحب ، والمراد هنا بأن له ولاة : أي له أحبة ؛ الأنبياء لهم مكانه خاصة ولهم مزية خاصة ولا يعني ذلك انتفاء المحبة عمن سواهم . والأنبياء كلهم قد أخِذ عليهم الميثاق بالإيمان بكل رسول يبعثه الله والتزموا بذلك ، ولهذا الأنبياء كلهم على طريقة واحدة ، وعلى منوال واحد ، وعلى سبيل واحد ، وعلى نهج واحد ،كلهم ماضون على مسلك واحد، كلهم دعاة إلى الله وتوحيده ، يجمعهم دين الله والحب فيه والدعوة إليه وبلاغه للناس ودلالة الناس على الخير والحق والهدى . وهنا قال: ((**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلَاةً مِنْ النَّبِيِّينَ**)) ؛ يعني لهم شأن .

قال: ((**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم وَخَلِيلُ رَبِّي**)) والله ﷻ لم يتخذ من عباده خليلاً إلا اثنين : إبراهيم الخليل عليه السلام، ونبينا ﷺ . وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)) . فيقول عليه الصلاة والسلام : ((**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم**)) ، ونبينا ﷺ من ولد إبراهيم ؛ لأن نسبه يصل إلى إسماعيل بن إبراهيم ، فإبراهيم أبوه ولهذا قال : ((**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم**)) .

((**وَخَلِيلُ رَبِّي**)) ولاحظ تنصيص النبي عليه الصلاة والسلام على الخلة التي ارتبط بها المعنى السابق وهو قوله : ((**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم**)) ؛ وهذا يبين أن النبي ﷺ في حبه وفي ولاءه ينطلق من حب الله ﷻ ، فالله اتخذه خليلا فكان من شأنه عليه الصلاة والسلام أن قال : ((**وَأَنَا وَلِيِّي منهم أَبِي إبراهيم**)) ، خصه الله ﷻ بالخلة وهي أعلى درجات المحبة وأرفع منازلها .

((**ثم قرأ قول الله** ﷻ: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾)) ؛ وفي هذا تنبيه على أمرٍ سبق إيضاحه عند المصنف في ترجمة مستقلة وهو أن هذا الباب لا يكفي فيه مجرد الدعوى ومجرد الانتماء ، وكم من أناس على ملل باطلة وأديان زائفة ويدّعون أنهم أوْلى بإبراهيم ، وقد مر معنا قول الله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران:٦٥] ، ومر معنا سبب النزول؛ وأن اليهود قالوا: إن إبراهيم يهودياً ، والنصارى قالوا: إن إبراهيم نصرانياً ، ورد الله ﷻ عليهم وكذّب دعواهم في هذا السياق المبارك . وعقب هذا السياق الذي فيه تكذيب دعوى هؤلاء قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ ؛ أولى الناس به ليسو من يدّعون أنهم أولياؤه وأحباؤه وهم على غير ملته وعلى غير دينه وعلى غير الحنيفية التي كان عليها ليسو أولياءه ، وقد قال نبينا ﷺ كما في حديث مر معنا قريبا : ((إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي، إنما أوليائي المتقون)) . فهنا فيه تنبيه على هذا المعنى : ((**ثم قرأ ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾**)) ، كثيرون من يدّعون أنهم محبون له وأنهم أوْلى به ، اليهود يدّعون ذلك ، والنصارى تدّعي ذلك ، والمشركون الذين بُعث فيهم ﷺ يدّعون ذلك ، كلٌّ يدّعي ولكن الدعاوى ما لم يُقَم عليها بينات فأهلها أدعياء .

قال: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ وفي ختم الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تنبيهٌ على أن الأدعياء لا حظ لهم من ولاية الله لعبده ، وإنما ولاية الله لعبده تُنال بالإتباع ؛ إتباع ملة إبراهيم الحنيفية السمحة .

قال رحمه الله :

وعن أبي هريرة ﷺ **قال : قال رسول الله** ﷺ : ((**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**)) .

****

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث ليبين أيضاً المعاني السابقة وليؤكد عليها ، وليوضح أن ولاية الله لعبده وتأييده لعبده وحفظه له ونيل العبد لثوابه وعظيم موعوده لا ينال إلا بتحقيق ما سبق ؛ ولهذا قال هنا في هذا الحديث : ((**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ**)) ؛ لا ينظر إلى الجسم من حيث الطول أو القصر أو البياض أو السواد أو وجود العيب أو السلامة من العيب ، وجود البصر أو عدم وجود البصر ، وجود السمع أو عدم وجوده أو ضعفه ؛ كل الأمور التي تتعلق بالأجسام لا ينظر الله إليها ، وقل ما شئت فيما يختص بالجسم كله ليس محل النظر ؛ لا طول ولا قصر ولا صحة ولا سلامة أعضاء ولا غير ذلك ((**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ**)) .

((**وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ**)) ؛ المال : ما يملكه الإنسان من أموال ، من نقود ، من تجارات ، من مزارع ، من بيوت ، من مركوبات ؛ كلها مال له ؛ فهذه كلها ليست محل للنظر . لا ينظر الله لا إلى الأجسام ولا إلى الأموال ، جسم الإنسان بجميع أجزائه ، وأمواله بجميع أشكالها وأنواعها لا ينظر الله إليها وليست هي محل الاعتبار في التقريب من الله ﷻ ونيل الثواب .

ومعنى قوله ((**لَا يَنْظُرُ**)) ؛ المراد بالنظر هنا نظر الرحمة والإثابة والإنعام والقبول والرضا ، وإلا فالله ﷻ يبصر جميع المبصرات ويرى جميع المخلوقات ، والنظر المنفي هنا : هو نظر والإنعام والرحمة والرضا والقبول والإثابة ، فلا ينظر إليهم ﷻ هذا النظر ؛ ولهذا يكثر في الأحاديث مثل هذا المعنى: ((ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ))؛ فالمنفي هنا : نظر الإكرام وكلام الإكرام والإحسان ، وإلا فالكفار الذين نُفي الكلام عنهم يقول الله لهم يوم القيامة ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ . هل قوله ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا﴾[المؤمنون:١٠٨] يتنافى مع قوله ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة:١٧٤] ؟ لأن الكلام المنفي كلام الإكرام والرحمة والإحسان والرضا ، والكلام المثبت أمرٌ آخر . فقوله هنا ((**إن الله لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ**)) ؛ المراد بالنظر المنفي هنا: نظر الإكرام والإحسان والرضا والقبول .

((**لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**)) ؛ النظر إلى هذين : إلى القلوب والأعمال ، والقلوب والأعمال –وهذا موضع الشاهد من إيراد المصنف لهذا الحديث– بماذا تصلح ؟ بماذا يصلح القلب وبماذا يصلح العمل ؟ قال: ((**لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**)) ، فما هو القلب والعمل الذي نال رضا الله ﷻ ؟ أكُلُّ قلبٍ ينال رضا الله ؟ أكُلُّ عملٍ يُنال به رضا الله ؟ حاشا وكلا ، إذاً ما هو الأمر الذي يُصلَح به القلب وتُصلح به الأعمال فينال الإنسان رضا الله ﷻ وثوابه ؟

الجواب في الآيات المتقدمة ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ، ومر معنا في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده لما قال للرسول عليه الصلاة والسلام ما الإسلام ؟ قال : ((أن تسْلم قلبك لله ، وأن تولي وجهك إلى الله، وأن

تصلي الصلاة المكتوبة ، وأن تؤدي الزكاة المفروضة)) ؛ فالقلب والعمل لا يصلحان إلا بإقامة الوجه للدين حنيفا ؛ بإصلاح القلب بالتوحيد والبراءة من الشرك ، وإصلاح العمل بالمحافظة على أوامر الله ﷻ.

وتقديم القلب على العمل لأنه أساس قيام الأعمال ، وقد قال عليه الصلاة والسلام منبهًا على عظم شأن هذا الأساس : ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ،وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)) ، والأعمال بمجردها لا تُقبل إلا إذا كانت مؤسسة وقائمة على التوحيد والإخلاص لله ﷻ . وقوله في الحديث ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)) ؛ النية تارة تُطلق ويراد بها ما يميز به عمل عن عمل وفريضة عن فريضة وواجب عن واجب ، وتارةً تطلق ويراد بها الإخلاص لله ﷻ في العمل . فالعمل لا يُقبل إلا إذا أقيم على الإخلاص لله ﷻ وصلح القلب بذلك ، وهو معنى قوله : ((أن تسْلم قلبك لله)) أي مخلِصاً مذعِناً مستسلماً ، ثم الجوارح تكون تبعٌ للقلب ، قد قال عليه الصلاة والسلام : ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)).

والعاقل إذا وقف على هذا الحديث وأمثاله من الدلائل في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام يجاهد نفسه على إصلاح قلبه وتزكية نفسه ، يجاهد نفسه على الإخلاص لربه تبارك وتعالى والاستسلام لأمره ، وإتباع نهج رسله عليهم صلوات الله وسلامه ، ويجاهد نفسه على المحافظة على ذلك والثبات عليه إلى أن يلقى الله ﷻ حنيفاً مسلماً ؛ فيرضى عنه ربه ويفوز بثوابه ونعيمه تبارك وتعالى الذي أعده لعباده المسلمين .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد .